

إحسان عبد القدوس



قطاع الثقافة

شفاه



Bibliotheca Alexandrina



0108865

مكتبة

أخبار اليوم
قطاع الثقافة

شفاه

إحسان عبد القدوس

الطبعة الثانية

دار أخبار اليوم
قطاع الصحافة
جمهورية مصر
العربية ٦ شارع
الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس: ٥٧٠٩٣٠

الخلاف بريشة :

الرسوم بريشة :

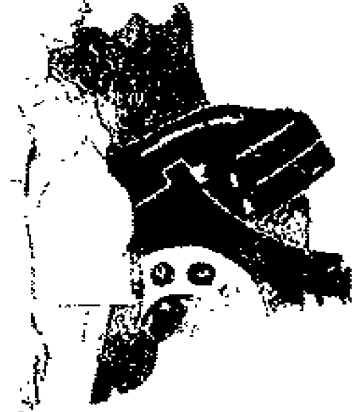
عمرو فهمي

جمال كامل



شرف المهنة

بلا ادعاء ، وبلا مبالغة ، أستطيع أن أقول
أنى أمهر عامل تليفون فى جميع دور
الصحف.. لا صحف الجمهورية العربية
المتحدة وحدها ، بل صحف الشرق الأوسط
كله .. وأولا جهلى باللغات الأجنبية
لاستطعت أن أقول انى أمهر عامل تليفون فى
جميع صحف العالم..



وعامل التليفون فى الصحيفة، ليس مجرد واحد من العمال أو الموظفين..
انه قلب الصحيفة.. القلب الذى ينبع منه الدم، ويعود إليه الدم، وتتجمع
عنده كل العروق والشرابين.. وقد لا يعرف القراء اهميتنا داخل العمل
الصحفى.. ولكن هذا ليس دليلاً على عدم اهميتنا.. ثقوا اننى أكثر أهمية
للصحيفة من الأستاذ مرجوشى عوض الله سكرتير التحرير.. بل أكثر
أهمية من الأستاذ فهمى فهمى الكاتب المعروف.. انى وحدى أستطيع
أن أبعث الحياة فى الجريدة، وأستطيع أن أشل حركتها وأجعل منها جزيرة
معزولة عن العالم محاطة بصخور.. مشغول.. مايردش.. ماقيش حرارة..
إلى آخر هذه الأنواع من الصخور.

انى أستطيع أن أحصل لك على أية نمرة.. وأستطيع أن أصلك بأى
شخص تريد محادثته ولا تعرف مكانه، فأجده لك من تحت الأرض، سواء
كان فى عمله أم فى كباريه، مع زوجته أو مع عشيقته.. وأستطيع أن أقطع
المكالمة التليفونية على أى متحدث فى أنحاء الجمهورية، وأن أصلك
بالاسكندرية بعد دقيقتين ، وأصلك ببيروت أو نيويورك بعد ساعتين.. انى
أستطيع أن أفعل العجائب.. كيف!؟ هذا هو سر المهنة.. سر اكتسبته بعد
تجارب خمسة عشر عاما جالسا أمام جهاز «السويتش» فى دار الجريدة.
ورغم ذلك ..

رغم كل ذلك، فانى الآن عاطل.. ومضت أكثر من ستة شهور وأنا
عاطل..

لست عاطلاً فحسب، بل مفلساً.. لقد كان مرتبى الذى أتقاضاه من الجريدة.. ثمانية عشر جنيهاً فى الشهر، ومجموع «البقشيش» أو الاتاوات التى أقرضها على السادة محررى وموظفى الدار تبلغ حوالى العشرين جنيهاً فى الشهر أى أن دخلى كان لا يقل عن ثمانية وثلاثين جنيهاً فى الشهر، وأحياناً يصل إلى أربعين جنيهاً، وكنت ادخن سجائر بلمونت، وأتناول غداثى عند أبوسقرة، وألعب الطاولة فى قهوة الشمس، والآن، ما عكش سيجارة سلف!

كيف حدث هذا؟

كيف أصبحت عاطلاً؟

إنها قصة طويلة تبدأ عندما التحق الأستاذ زكى شحاتة بالدار، وعين رئيساً للتحرير.. وقد حيرتنى شخصية الأستاذ زكى عندما رأيته لأول مرة، كان أنيقاً، مبتسماً، رقيقاً، مهذباً، يلمع وجهه دائماً كأنه يدهنه بالورنيش.. ولكن هذا المظهر لم يخدعنى، ولم أصدر حكماً عليه عندما رأيته، فأنى لم اتعود أن أعرف الأشخاص بعينى، بل أنى أعرفهم بأذنى، خلال محادثاتهم فى التليفون..

نعم.. أنى استمع إلى جميع المحادثات التليفونية التى تتم عن طريقي.. ليست جميعها، بل معظمها، فإن بعض هذه المحادثات تبلغ من السخافة إلى حد أرفض معه الاستماع إليها..

هل بدأت تسيئون الظن بى، وتوجهون لى اللوم؟

لا.. أرجوكم.. أن المثل يقول «طياخ السم، يذوقه»، وأنا يجب أن أذوق كل محادثة تليفونية أصل بين طرفيها.. إنه حق لى.. حق بديهى.. وليحاول أى واحد فيكم أن يجلس أمام «السويتش» ثم لا يستمع إلى المحادثات التى تدور خلال الأسلاك.. مستحيل.. هذا أقوى من طبيعة البشر..

وقد تكونت لى موهبة خاصة من طول ما مارست الاستماع إلى المحادثات التليفونية.. أنى استطيع أن أعرف شخصية المتحدث ونفسيته من صوته، ومن أسلوب حديثه.. أستطيع أن أعرف الشريف، والسافل، والمنافق، والصادق، والقوى، والضعيف، أن أصوات الناس كالموسيقى..

وكما تعبر الموسيقى عن مختلف العواطف والأوصاف والشخصيات..
فكذلك الأصوات، وأكثر من ذلك، انى أستطيع ان اعرف عمرك بالضبط من
صوتك.. وإذا كان المتحدث امرأة أستطيع ان اعرف إذا كانت شقراء أم
سمراء، عاطفية أم مادية، عبيطة أم ناصحة، انها خبرة طويلة.. وموهبة..
انه فن.. وأنا فنان!

وأحياناً كثيرة اتدخل في المحادثات التى أستمع اليها.. فإذا كانت
المحادثة لا تعجبني مثلاً، قطعت الخط، وقلت للأستاذ:
— آسف.. الترتك طالينا!

وإذا كانت المحادثة لطيفة من النوع الذى يعجبني، أبعدت عنها كل
المكالمات الأخرى الخاصة بالدار، وجلست أستمع اليها كأنى أستمع إلى
اغنية لنجاة الصغيرة، إلى ان تنتهى الأغنية نهاية طبيعية..
المهم..

لقد انتظرت ان يتحدث الأستاذ زكى فى التليفون، وبحدب فعلاً.. ولكنه
كان لا يطلب الا محادثات خاصة بالعمل.. واستطعت خلال هذه المحادثات
ان احكم عليه بأنه انسان لبق، يستطيع ان يصل دائماً إلى ما يريد، ولكن
المحادثات الخاصة بالعمل لا تكفى للحكم على طبيعة الأشخاص، ان العمل
كالبدلة التى ترتديها، تستطيع ان تخفى تحتها جميع القروح والجروح
المنطبعة على جسدك، انما المحادثات النسائية هى التى تظهر طبيعة
الشخص وحقيقته.. تظهر عاريًا.. وقد لا تعلمون ان ٧٥ فى المائة من
المحادثات التليفونية فى الدور الصحفية، كلها محادثات ليس لها علاقة
بالعمل.. كلها محادثات نسائية..

والأستاذ زكى لم يتحدث محادثة نسائية واحدة عن طريقى.. عن
طريق السويتش.. لابد انه يستعمل تليفونه الخصوصى فى محادثاته
التليفونية.. وأنا أكره التليفونات الخصوصية.. انى اعتبرها تحدياً
لسلطاتى.. اعتبرها بمثابة اتهام لى فى امانتى!

وتسللت إلى مكتبه يوماً، وعبثت فى آلة التليفون الخصوصى، وخربتها!
وحدث ما توقعته، عاد الأستاذ إلى مكتبه، واتصل بى صارخاً:

— تليفونى خسران يا عيده.. شوف لك طريقة.. صلحه حالاً..

قلت وهو لا يرى ايتسامتى:

— حالاً يا أستاذ .. حاتصل بالمصلحة!

وقال الأستاذ :

— طيب اطلب نمره ١٢٦١٦ .. واديني الخط على طول!

وطلبت له النمره .. واستمعت ..

استمعت إلى أجمل صوت نسائى مرَّ يا أذننى، فى عمرى كله.. صوت

رقيق ناعم خجول ..

لا بد انها فى الثامنة عشرة من عمرها.. ولا بد انها سمراء.. ولا بد انها من

عائلة كبيرة.. انى أكاد أراها فى صوتها.. عيناها السوداوان يثقلهما الخفر..

وشفتاها المكتنزتان.. ووجنتاها الناضجتان المصهورتان بحرارة شبابيها..

وشعرها الأسود الطويل كليل عاشق.. و.. ان صوتها يتسلل من أذننى إلى

خيالى.. إلى قلبى..

وسمعتة يقول لها :

— حاشوفك امتى؟

قالت فى خفر :

— ما انت شفتنى امبارح ..

قال وفى صوته تنهيدة :

— امبارح .. يعنى فوات اربع وعشرين ساعة.. يعنى ألف وربعمائة

وأربعين دقيقة.. يعنى ستة وثمانين ألف وربعميت ثمانية.. ولسه

ما وحشتكىش!

هذا المتناقض .. كيف استطاع ان يحسب كل هذه الأرقام.. لا بد انه

حسبها بالورقة والقلم قبل ان يحادثها..

وقالت له فى سذاجة :

— وحشتنى .. وحشتنى قوى!

قال :

— أشوفك بكره .. بس مش فى الشارع .. كفاية اللي حصل .. الناس

كلها عارفانى وكل ما اقعد معاكى فى حته يشاوروا علينا.. باحس ساعتها
كان الناس كلها واقفة بينى وبينك..

قالت :

— بس انت عارف .. أنا ما اقدرش اروح الشقة!

قال :

— تبقى ما بتحبينيش .. ما عندكيش ثقة فى ..

قالت مرتبكة :

— بس ..

قال :

— مرفت .. علشان خاطرى .. وحياتى عندك .. ما تخلينيش أحس انك

خايقة منى..

قالت فى استسلام:

— طيب بكره الساعة ستة .. بس مش حاتأخر.

وانتهت المحادثة التليفونية..

وسرحت انا .. وجدت نفسى اعيش مع مرفت.. واخذت اتصورها وهى

فى الشقة مع الأستاذ زكى.. واحسست بشيء يتململ فى صدرى كأنى أغار

عليها.. كأنى أريد انقاذها من الأستاذ..

ولم أنم ليلتها .. وصوتها يملأ اذننى وخيالى..

وعدت فى اليوم التالى اربط أمام السوييتش.. أريد ان اسمع صوتها من

جديد.. وأتمنى ان يحدث شيء يمنعها من لقاء الأستاذ.. ولكنها لم تتكلم..

ولم أنم أيضاً.. قضيت الليل اتقلب على جنبى.. أريد ان اعرف ماذا جرى فى

الشقة.. أريد ان اعرف.. يجب ان اعرف.. وطبعاً لم اصلح تليفون الأستاذ

الخصوصى..

وتكلمت مرفت فى اليوم التالى.. كانت سعيدة.. فى صوتها رنين كرنين

الشخايل.. كصاجات نجوى فؤاد.. وسمعته يقول لها:

— بعد ما سينك قعدت افكر فى يوم ما تيجى وتقعدى فى الشقة على

طول.. تبقى بيتك.. وبيتى..

قالت في دلال:

— بس لازم تغير الصورة اللي في الانتريه.. مش عاجبانى..

قال:

— بكره لما تيجى تشيلها بايدك.. وتعملى فى الشقة اللي انتى عايزاه..

قالت:

— بس توعدى انك ما تتشاقاش.. انت كنت امبارح شقى قوى..

قال المنافق:

— ده قلبى..

وحددا موعداً آخر للقاء فى الشقة.. ولم استطع ان اقف فى وجه ثورة الأستاذ على تليفونه الخصوصى الخسران، فأصلحته له.. وحاولت بعد ذلك ان اقاوم..

حاولت ان ابعد عن أذنى وخيالى صوت مرفت، وصورتها وهى مع الأستاذ فى الشقة، ولم استطع، كنت احس بأنى اتستر على جريمة، بأنى اتخلى عن مرفت، اريد ان اعرف ماذا جرى لها، يجب ان اعرف.. وتسللت مرة ثانية، وعبثت فى تليفون الأستاذ الخصوصى، وخسرت، وعاد الأستاذ يصيح فى وجهى:

— التليفون خسر تانى يا عبده، شوف لك طريقة!

قلت فى برود:

— اخذن العدة لازم تتغير.. حانكتب للمصلحة علشان تركب عدة جديدة..

قال وهو يزفر:

— طيب اطلب ١٢٦١٦ .. وادينى الخط على طول!

وطلبت النمرة بلهفة، وسمعت صوتها يملأ أذنى كأنه الحياة، ولكن، ان فى صوتها رنة غريبة، رنة حزينة خائفة..

ثم سمعتها تقول له:

— أنا خايفة يا زكى!

قال وهو أكثر جراءة عليها:

— قلت لك ما تخفيش، اطمئنى !

قالت :

— يعنى حانتجوز صحيح؟

قال :

— طبعاً ، بس ادينى شهر واحد انظم فيه نفسى، وحاتلاقينى عندكم

فى البيت!

واحسست ان الجريمة قد وقعت ..

وقال لها بصوت آمر :

— حاشوفك امتى ؟

قالت كانتها جاريتها :

— زى ما انت عايز ..

قال فى عظمة :

— بكرة .. نفس الميعاد !

قالت :

— حاضر ..

واحسست ان قلبى يتقبض .. احسست ان مرفقت تبكى بعد ان وضعت

سماعة التليفون ..

واحسست برغبة فى البكاء ..

ومر شهر، وأنا فى كل يوم اسمع صوت مرفقت يزداد ضعفا وهزالا،

حتى يصبح كصوت الشحاذين، فيه استجداء وفيه خزى، ولم يعد الأستاذ

يطلبها فى التليفون بل هى التى تطلبه .. واستطاع ان يجد حجة جديدة بعد

ان انقضى الشهر .. انه مسافر إلى الاقليم الشمالى لعمل تحقيق صحفى ..

وانا اصلح له التليفون الخصوصى يوماً، وأفسده يوماً، وقلبى معلق

بشفتى مرفقت ..

وسافر الأستاذ فعلاً .. وعاد، ولم يفكر فى ان يطلب مرفقت فى التليفون،

انما هى التى تطلبه، وسمعت صوتها .. وكانت تبكى .. تبكى فى رعشة

وخوف:

— زكى .. أنا حامل!

وقال الأستاذ كأنه لم يكن ينتظر ان تكبر جريمته إلى هذا الحد:

— إزاي ده .. انتى متأكدة!

قالت من خلال دموعها :

— متأكدة يا زكى.. قول لى اعمل ايه.. ما تسبنيش اعمل معروف.. فى

عرضك!

— قال :

— ومالك خايضة كده .. دى حاجة بسيطة.. انا حاتفك لك مع دكتور..

وكل حاجة تروح لحالها..

وارتفع بكاء مرفت:

— يهون عليك تموتنى يا زكى ..

وقال يقاطعها :

— تموتى ايه .. دى عملية بتتعمل ميت مرة فى اليوم..

وقالت هالعة :

— ما اقدرش .. ما اقدرش .. انت وعدتتى اننا نتجوز..

قال فى سخط :

— الحق على انا اللي عرفت بنات صغيرين .. ياسقى مش معنى اننا

نتجوز، اننا نخلف قبل الجواز.. خلاص.. بكسرة احدد لك ميعاد مع

الدكتور.. اوريفوار..

والقى السماعه، قبلها ..

وكبرهته .احسست بقوة ضخمة تدفعنى لأن أقوم واقتله، ولكنى لم

استطع ان افعل شيئاً الا ان أسكت، وابتلع دموعى!

وفى اليوم التالى اتصل بها، وقال لها ان الدكتور سينتظرها فى الساعة

الحادية عشرة صباحاً، وانها تستطيع ان تعود إلى البيت فى الساعة

الواحدة، دون ان يلحظ احد من اهلها اى شىء.. ثم لم ينتظر ان يسمع

ردها.. أو بكاءها..

ووضع سماعة التليفون، ثم عاد ورفعها وقال لى:

— لما الست دى تضرب تليفون تانى قول لها مش موجود، فاهم.. ولما
تصلح التليفون الخصوصى، ابقى اطلب تغيير نمرة عايز نمرة سرية..
قلت فى ضعف، كانى مرفت .. كان الأستاذ اعتدى على عرضى انا الآخر:
— حاضر..

وتكلمت مرفت.. ولم اقل لها ان الأستاذ ليس موجوداً، بل حولت اليه
الخط.. وقلت له بسرعة :
— اتفضل كلم ..

وسمعتها تقول له :
— انا خايفة يا زكى .. مش قادرة اروح للدكتور وحدى، لازم تيجى
معايا..

وصرخ فى وجهها :
— ايه لعب العيال ده .. انتى عايزة الناس تقول ايه لما يشوفونى داخل
عيادة دكتور أمراض نسا..
— انت ما بيهمكش الا نفسك .. ما بتخافش الا على نفسك.. وأنا
يا زكى.. انا..

ولم يمهله.. القى السماعة من يده..
ولكن مرفت لم تلق سماعتها.. ظلت ممسكة بها فى يسدها، وهى تبكى..
كأنها تبكى لى..
ولم أطلق.. حولت الخط مرة ثانية إلى الأستاذ، لعل بكاء مرفت يشق قلبه
الحجر.. وسمعته يصرخ:

— انتى برضه .. احنا مش حانخلص من الدوشة دى.. أنا مش عايز
أسمع صوتك بعد كده.. و..
ولم احتمل ثورة السافل، وتدخلت فى الحديث دون ان أدري، وقلت له
كأنى أحاول أن انصحه:

— ما يصحش يا أستاذ.. خللى فى قلبك رحمة.. أنت برضه انسان.. و..
وصرخ الأستاذ :

— ايه ده .. مين بيتكلم .. عبده .. وقعتك سوده ..

ثم ترك مكتبه ووجدته داخلاً على في غرفة السويش كالمجنون ، وانها
على صفعاً وركلاً ، وهو يقول :
— أنا حاوديك في داهية ، يا حرامى ، تسمع المكالمات .. يا ابن الـ ..
يا ابن الـ .. يا ابن الـ ..
ولم أرد صفعاته .. اكتفيت بأن أحمى نفسى منها ، أحسست ساعتها
أنى كمرقت .. ليس لى حق عليه .. ولا أستطيع أن آخذ بثأرى منه .. وأخذت
أردد وهو يضربنى :
— اتجوزها يا أستاذ .. حرام عليك يا أستاذ ، دى بنت غلبانة يا أستاذ ..
اتجوزها خللى عندك انسانية ..
وهو لا يزال يضربنى ..
ولم يكتف الأستاذ .. ذهب الى صاحب الجريدة واتفق معه على طردى
من العمل ، بعد أن هدد بالاستقالة من رئاسة التحرير ، إذا لم أطرده ..
وطردت ..
وأصبحت عاطلاً ..
ولم أعد أدري ما يحدث لمرقت .. وصوتها لا يزال يملأ أذنى وخيالى :
وبعد ..
قد تسألوننى لماذا لم أهدد الأستاذ بإفشاء سره ، إذا لم يعدنى الى
العمل ..
انكم بذلك تسيئون إلى .. فإن أهم ما أعتر به هو شرف المهنة .. وشرف
المهنة يحتم علينا أن نحتفظ بالأسرار التى نستمع إليها ، وألا نستغلها حتى
ولو كان من بينها سر جريمة ..
حد منكم معاه سيجارة !!





بلا زواج



انى أعيش بعيدا.. بعيدا جدا.. بلدى
صحراء.. خصها الله بالدين والدنيا.. فأنزل
وحيه على أرضها، وفجر من رمالها البترول..
وقد لا تهكم قصتي، بل قد لا تفهمونها،
فأنتم لا تروننا إلا من خلال نوافذ السيارات
الكاديلاك، ولا تسمعون منا إلا رنين الذهب..

انكم لا ترون الدموع التى تملأ عيوننا، ولا تسمعون الآهات التى
تنز فى صدورنا كأزيز النار!

ورغم ذلك، فاسمعوا قصتي.. لتعرفوا نوعا من العذاب لم يخطر على
أرضكم، ولم تتعرض له بنت من بناتكم..
هل سمعتم عن قوم يسمون «بنى خضير»؟
طبعاً لا..

ان «بنى خضير» هم جماعة من المولدين.. أى الذين ليس لهم أصل..
ليس لهم جد يستطيعون أن يسموه، وهم أبناء السلالات المختلفة.. فإذا
تزوج عربى من امرأة تركية مثلاً، أو تزوجت عربية من رجل هندى..
فأبناء هؤلاء هم «بنى خضير»..

وعندكم، إذا لم يعرف الطفل أباه، فقد يعتبر ابن زنا، وقد ينبذه
المجتمع، ويخصه بمعاملة شاذة تشعره بوضاعته..

ولكن عندنا، لا يكفى أن يعرف الابن أباه، بل يجب أن يعرف جده،
وجده جده، إلى أن ينتهى نسبه إلى قريش، أو إلى قحطان، إلى قبيلة من
القبائل المعروفة.. وإلا فهو ضائع، يعامل معاملة بنى خضير.. فإذا كان
رجلاً فليس من حقه أن يتزوج من بنات الأسر الكريمة، وإذا كانت بنتاً
فليس من حقها أن تتزوج من رجال القبائل المعروفة.. ولو حدث أن تزوج
رجل خضيرى من فتاة من قبيلة أخرى.. يقتل، وتقتل معه الفتاة.. وإذا
حدث أن تزوجت فتاة خضيرية من أحد رجال القبائل، قتلت.. وقتل الرجل
أيضاً.. قتله أبوه، أو إخوته أو بنو عمومته، تخلصاً من عاره..

وربما تكونت سلالة «بنى خضير» منذ أيام الفتوحات الاسلامية،
عندما كان الجنود العرب يتزوجون من بنات البلاد التي يفتحونها،
ويعودون الى الصحراء ومعهم زوجاتهم، فأرادت القبائل العربية أن تحمي
نفسها من هؤلاء الدخلاء، أن تحمي دماءها النقية من دم الأعراب، ففرضت
على أبناء هؤلاء الجنود، هذا الذل، ووصمتهم بالعار، وظلوا يعانون الذل
والعار الى يومنا هذا..

هل تدهشون وأنتم تقرأون هذا الكلام؟
لا تدهشوا، فقد قلت لكم انكم لا تعرفون بلادى.
وأنا فتاة من بنى خضير..

ولم أكن وأنا صغيرة أستطيع أن أفهم بالضبط معنى أن تكون الفتاة
من بنى خضير.. فنحن نعيش حياة عادية كحياة كل الناس، بل نحن
نعيش في مستوى أرقى من مستوى كثير من الناس، فأبى تاجر أفاض الله
عليه بالرزق، واستطاع أن يجمع ثروة كبيرة، وأصبحنا نملك ثلاث
سيارات، وفيلا أنيقة مكيفة الهواء، وفريجيدين، ورايوى، وسينما منزلية،
وخدماء وثيابا على الحريز، و..و..

وعواطفى كعواطف كل الناس.. أحب أبى وأمى.. وأحب صديقاتى..
وأحب خدمى.. وأحب الفقراء.. كان قلبى دائما مفعما بالحب.. والحب
يشيع في نفسى السعادة..

وأكثر من ذلك.. لقد حرص أبى على تعليمى، فأصبحت أرقى ثقافة من
كثير من بنات قريش وقحطان.. وكنت أقرأ كثيرا.. ثم بدأت أكتب.. كتبت
قصصا لم يقرأها أحد.. وكتبت خطابات كنت أرسلها الى الكتاب العرب
الذين أقرأ لهم..

لم يكن في حياتى شيء يقنعنى بأنى أقل من غيرى من البنات..
بالعكس.. كل شيء كان يقنعنى بأنى أرقى منهم.. أرقى منهم بعقلى
وعاطفتى.. وأجمل منهم.. نعم، أنا جميلة.. ان الدماء المختلطة التي تجرى
في عروقى، قد جمعت أجمل ما في البلاد العربية، وأفاضت به على..
إلى أن قابلته..

كنت مع أمى فى زيارة عائلته، عندما دخل علينا.. فتى فى العشرين، عيناه
واسعتان ينطلق من سوادهما شعاع يخلع القلب، ووجهه أسمر نحيل
قوى، وأنفه معقوف أشم، كأنه متقار صقر، ولحيته الصغيرة، وشاربه، انه
فتى، يسير فى عباءة من شبابه، فتى الحلم الوردى!

وأسرعت أخفى وجهى بيدي.. لا أدري لماذا، ربما أردت أن أضع يدي
على قلبي، فأخطأت ووضعتها على وجهى، ولححت عينيه تنظران الى،
وشعاعهما يخلع القلب.. ثم رأيت رموشه ترتعشان فوق عينيه كأنها
ترتعش بخفقات قلبه..

وقامت أمى واقفة لمقدمه، وقمت معها، وصافحتنى، وأحسست بيده
تضغط على يدي، كأنه يحاول أن يقبض على ولا يتركنى..
ثم انسحب..

وعدت الى بيتى أحلم به..

وجاءتنى احدى جوارى عائلته تهمس فى أذنى بكلمة الحب، انه
يحبنى، وهو يحلم بى، وهو يريدنى.. ويسأل كيف يقابلنى!
ورفضت أن أقابله، مكتفية بأحلامى معه!
وأرسل لى خطابا، كله حب.. كله حب!
وأرسلت له خطابا، أعنف حبا!

وتوالى الخطابات بيننا، أصبحت حياتى كلها خطابا أتلقيه منه، وخطابا
أكتبه إليه.. والحلم يرتفع بى.. ويرتفع.. الى السماء.. وأنا فى انتظار أن
يخطبنى، ويتزوجنى، وانتقل الى قصره.. الى قصر أحلامى!
ثم لم أعسد أطيق أن أحلم وحدى، فأشركت أمى معى.. أطلعتها على
سرى.. فإذا بها تصيح فى زعر:

— دعك منه!

قلت فى دهشة:

— لماذا؟

قالت:

— انه ليس لك!

قلت :

— انه يحبني !

قالت :

— انه لن يتزوجك..

قلت :

— من أدراك ؟

ونظرت الى أمي في اشفاق، كأنها تخاف علي من ثقل الحقيقة، وقالت في

صوت رهيب :

انهم لا يتزوجون من بنى خضير !

وخرست ساهمة. وبدأت حقائق كثيرة تنكشف أمامي.. هذا المجتمع المنعزل الذي نعيش فيه.. هذا الذل والخنوع الذي يبدو علي أبي رغم ثرائه.. هذا التعالي الذي تعاملني به صديقتي وكنت لا أنتبه إليه لفرط حبي لهن.. وتنبيهت الى انني عندما أذهب وأمي لزيارة عائلة كبيرة.. تبالغ أمي في احترامها لربة البيت.. و..و..

كثير من المظاهر التي تحيط بي بدأت تنكشف أمام عيني.. ورغم ذلك لم أصدق نفسي.. كان حبي أقوى من الحقيقة التي أعيش فيها.. كان حبي يزودني بالأمل في أن حبيبي يستطيع أن يغلب الحقيقة.. وذهبت الى لقائه..

ووضع هو خطة اللقاء في خطاب أرسله الي.. سأركب سيارتي الى بيت إحدى خادمت عائلته.. وأتسلل من باب، وأركب سيارة أخرى تحملني الى بيت عبد من عبيده.. حيث ينتظرني.. ولقيته..

وضمني الى صدره ليسمعني دقات قلبه.. ومست شفتاه شفتي.. ثم أخذ يروي لي قصة حبه.. ببساطة.. وهدوء.. وقلت له فجأة، كأنني لم أعد أطيق السكوت:

— هل تتزوجني ؟

ورفع إلي عيني دهشتين كأنني أطلب مستحيلاً، ثم أطرق برأسه،

وقال :

— يا ليت..

قلت متهمكة :

— لعل المانع خير..

قال ببساطة :

— سيقتلوننى.. ويقتلونك !

قلت :

— هذا أرحم !!

وعدت الى البيت شائرة.. وخيل إلى في ثورتى انى أستطيع أن أجبر
حبيبى على أن يتزوجنى، لا لأنى أحبه فحسب، بل لأمسح العار عن
جماعتى.. لأصحو الأسطورة السوداء التى يعيش فيها بنو خضير..

وعدت أقابله .. قابله كثيرا.. دائما فى بيت العبد.. وكان دائما عفا شريفا
معى.. ولكنه كان دائما يائسا من زواجى.. وصرخت فيه مرة:

— هل تجدنى أقل شرفا من الأعرابيات ؟

قال :

— أكثر منهن شرفا ؟

قلت :

— قبلنى.. هل تجد لقيلتى مذاقا آخر غير مذاق قبيلات بناتكم!

قال :

— ارق مذاقا !

قلت :

— اذن لماذا.. لماذا.. لا تتزوجنى!

قال :

— لأن مئات السنين تقف بينى وبينك، وتحكم علينا ألا نتزوج!!

وكانت أمى تحس بما يجرى لى.. كانت ترى ثورتى فى قلبى.. وترى
الحقد يملأ صدرى على المجتمع الذى أعيش فيه.. وترى السخط فى عيني
كلما نظرت إليها وإلى أبى.. ساخطة عليهما لأنهما راضيان بوضعهما بين
الناس، ورضيا لى بنفس الوضع.. لقد أصبحت أكره.. أكره أمى وأبى..

وأكره بلدى .. وأكره كل الناس .. كلى كراهية..
وأخيرا قرر أهل أن يزوجونى.. زوجا من بنى خضير.. ورضى حبيبى
أن يتركنى أتزوج، وسافر الى الخارج لعله ينسانى، وينسى حبى..
ودخلت على زوجى وأنا مصممة على ألا أحمل منه.. انى لا أريد أن
تكون لى بنت تعانى ما أعانيه.. لا أريد أن أضع فى الحياة بنتا موصومة
بالذل والعار من قبل أن تولد.. لا أريد أن يكون لى بنت من بنى خضير!
وتحملت أنفاس زوجى الكريهة.. تحملت العذاب كله.. ولكنى صممت
ألا أحمل منه.. وجن الزوج المسكين.. وصب على جنونه.. ولكنى كنت
مصممة.. مهما حدث فلن أضع بنتا أو ابنا من بنى خضير..
وتزوج زوجى على.. ثم.. لم يعد يحتملنى.. فطلقنى!
وعاد حبيبى، وهو لا يزال يحبنى..
عاد يطلب لقائى..
وقابلته فى بيت العبد..
ولا زلت أقابله.. دائما فى بيت العبد..
ولم يعد لقائنا عفا ولا شريفا.. وأنا راضية، فهذا كل نصيبى من
الحياة.. وأمى تعلم وتسكت.. وأبى يعلم ويسكت فهما من بنى خضير!
وحبيبى لا يستطيع أن يقدم لى أكثر من هذا النصيب.. انى لست عبدة
فيشترينى ويأوينى.. ولست حرة فيتزوجنى.. أنا من بنى خضير.. وغاية
ما يستطيع أن يقدمه لى هو أن يقابلنى فى بيت العبد!!
انى أكتب قصتى..
ثم سأنتحر..



مدام انچیل



لا أستطيع أن أنسى أبدا «مدام انجيل»..
وقد تمر بى شهور طويلة لا أذكرها، ثم فجأة
وأنا جالس على مائدة الطعام، أو وأنا أعمل
في الشركة، أو وأنا خارج من السينما، أراها
منتصبة في خيالي بوجهها النحيل المغضن،
وجسدها الرقيق الجاف كسيخ من الحديد،
ونظراتها النشطة، والشارب الخفيف فوق شفثيها، وشعرات متناثرة
فوق ذقنها، ويديها المعسروقتين الخشنتين، وذراعيها المكسوتين
بالشعر، وشفثاها مقلوبتان دائما كأنى أزمة اشمشزان، ولغتها
العربية المكسرة التى تنطقها بلهجة يونانية..

وقد عاشت مدام انجيل في صباى.. كانت تأتى إلينا لتحريك ثياب أمى،
وتبقى في البيت طول النهار.. وكانت أمى تحتفى بها احتفاء خاصا، وتعد
لها ألوانا مخصوصة من الطعام.. كان أهمها المكرونة الطويلة
«الاسباجتى»، واللحمة المشوية، والعيش الفينو.. حتى انى كنت كلما رأيت
المكرونة في البيت استنتجت توا ان مدام انجيل ستتغدى معنا..

وربما كان سر اهتمام أمى بـ مدام انجيل، انها أحسن وأمهر خياطات
حى الظاهر.. ولكن الأرجح ان هذا الاهتمام كان له دافع آخر.. دافع أقوى..
وهو شعور أمى بأن مدام انجيل «خوجاية».. فكانت تعد لها طعام
الخواجات.. وتحاول أن تبدو أمامها أكثر تمدينا كالخواجات.. وكنت أرقب
أمى وهى تحدث مدام انجيل، وألاحظ انها — أى أمى — تتعمد استعمال
الكلمات الأجنبية التى تعرفها.. وكلها كلمات ساذجة قد لا يكون لها دخل
في الحديث.. بونجور.. مرسى.. كورسيه.. بابيون.. كلمات من هذا النوع،
كسنت أمى تلتقطها من هنا وهناك لتتباهى بها أمام مدام انجيل، كأنها
تحاول أن تبدو «خوجاية» مثلها..

فإذا ما تحدثت مدام انجيل، استمعت إليها أمى وهى مبهورة الأنفاس،
كأنها تستمع الى حكمة أفلاطون ومنطق سقراط.. كأنها تستقبل مدنية

جديدة، تفتح أمامها أبوابا مغلقة من أبواب الحياة..
وقد أحست مدام انجيل بتأثيرها على أمى.. وربما أخذت تستغل هذا
التأثير.. وأخذت العلاقة بينهما تتطور الى نوع من الصداقة، وبدأت مدام
انجيل تأتى لزيارتنا دون أن تكون أمى في حاجة إلى صنع ثياب، وتقضى
معنا دائما طول النهار.. وأصبح لها نوع من السيطرة علينا كلنا، وأمى
الطيبة مستسلمة لها، مبهورة بلهجتها الأجنبية، وأبى الهادىء يكتفى
بإبتمامه الساخرة ويترك مدام انجيل تفعل بأمى ما تريد..
وكانت مدام انجيل متعالية دائما علينا، مشمئزة دائما من الطريقة التى
نعيش بها، ودائما تصدر أوامرها ونصائحها كأنها تحاول أن ترفعنا إلى
الدنيا الراقية التى تعيش فيها، دخلت مرة في حجرتى وأنا نائم، ووجدت
النافذة مغلقة، فصاحت بلهجتها اليونانية تصدر أوامرها إلى أمى:
— مش كويس كده يا مدام.. لازم الشباك يفضل مفتوح علشان الهوا
لازم يخش للولد.. أنا بنتى ماريا لازم تنام والشباك مفتوح..
وكانت أمى تزهو كلما خاطبتها مدام انجيل بلقب «مدام».. كان هذا
اللقب يقنعها بأنها أصبحت «خوجاية» كمدام انجيل..
وسرعان ما فتحت أمى الشباك، وارتعشت أنا من البرد دون أن أستطيع
الاعتراض..
وفي مرة رأيتى «مدام انجيل» وأنا أكل الملوخية بالعيش أغمس العيش في
طبق الملوخية ثم أرفعها الى فمى.. فصاحت:
— مش كده يا خبيبي.. احنا كمان بنعمل ملوخية في البيت بتاع اخنا..
انما بتاكله بالملعقة زى الشورية.. بنتى ماريا بتاكل الملوخية بالملعقة، لازم
تكون زى ماريا..
وشربت الملوخية بالملعقة، وأمى أيضا بدأت تشرب الملوخية بالملعقة..
وفي مرة أخرى نظرت الى مدام انجيل بعينيها القويتين، وقالت:
— الصحة بتاعك مش كويس.. لازم تاخذ كينا بسلىرى، أنا بندى بنتى
ماريا كل يوم واحد كباية كينا بسلىرى.. علشان بيحى كويس خدودها
يبقى زى الدم!..

وأسقتنى أمى الكينا بسلىرى رغم صراخى..
ولم أكن قد رأيت ماريما ابنة مدام انجيل، ولم تكن أمى قد رأتها، فهى
لم تأت بها الى بيتنا أبدا، رغم إلحاح أمى، كما اننا لم نكون نزور مدام انجيل
فى بيتها، وربما اعتقدت أمى أن رؤية ماريما شرف كبير لا نستحقه..
وكنت أتخيل ماريما، كنت أقضى ساعات طويلا وأنا أرسـم لها صورة فى
خيالى، كنت أتصورها ذات شعر أصفر طويل، ووجه أبيض مستدير ملء
بالصحة والعافية، وخدودها فى لون الدم، وكنت كلما رأيت صورة لطفلة فى
أحدى المجلات، أو فى إعلان عن أحد الأدوية القوية، أتخيل ماريما مثلها..
كنت أتخيل ماريما صبية قوية.. قوية جدا. أقوى منى، الى درجة انى
كنت أخافها أحيانا.. وكنت أتخيلها مظلومة لا تمرض أبدا.. لا تصاب
بالسعال الديكى، ولا بالحصبة، ولا بالأنفلونزا.. الى آخر الأمراض التى
أصبت بها الواحد بعد الآخر.. وكنت أتخيلها نظيفة.. نظيفة جدا.. نظيفة
دائما.. لا تلعب ألعابنا.. ولا تأكل بطريقتنا.. ولا تتحدث كما نتحدث..
أتخيلها كملاك لا يعيش على الأرض مثلنا..

وأصبحت ماريما هى محور حياتى..
ان مدام انجيل تنصحنى دائما أن أفعل ما تفعله ماريما..
وأمى تضربنى وتقول لى: ماريما أصغر منك.. وتفعل كيت وكيت وأنت
لا تفعل شيئا..
وأصبحت أكره ماريما، وأخافها، وأحسدها، وأحقد عليها، وأتمنى أن
أراها..

وفجأة.. انقطعت مدام انجيل عن زيارتنا..
ومضى اسبوع واسبوعان، ثم جاءت لزيارتنا فجأة كما اختفت فجأة..
جاءت ترتدى ثوبا أسود.. وقوامها الذى كان كسيخ الحديد أصبح كعود
الخيرزان يتلوى وهى تخطو.. وصوتها القوى أصبح صوتا ضعيفا
منهارا..

وسألتها أمى:
— مالك يا مدام انجيل..

وبكت مدام انجيل، وقالت:

— ماريا بنتى..

وخبطت أُمى على صدرها، وقالت:

— ما لها؟

وقالت مدام انجيل ودموعها تنهمر:

— خلاص.. مورتو..

وصرخت أُمى:

— ماتت.. ماتت ازاي؟

وقالت مدام انجيل:

— كان عنده أنيميا..

ونظرت إلى أُمى ثم احتضنتنى كأنها تحمينى من الموت.. ونظرت أنا إلى مدام انجيل كأنى لا أصدقها..

وظلت مدام انجيل تبكى وتحديثنا عن ماريا.. ثم أخرجت من حقيبتها صورة لها.. ونظرت أنا وأُمى إلى الصورة فى لهفة، فإذا بها صورة فتاة عجفاء، صفراء، ممصوفة الوجه!

وبعدها حدث انقلاب فى حياتى..

أصبحت أُمى تغلق النافذة عندما أنام.. وسمحت لى بأن أكل الملوخية بلقعات العيش، وأصبحت تنهرنى اذا حاولت أن أشربها بالملعقة، وتصيح فى: « يسا واد كل بالعيش، خليك تسمن شوية ».. وامتنعت عن اعطائى كؤوس الكينا بسليرى.. و..و.. تحررت أُمى من سيطرة مدام انجيل.. ولكنى لا زلت أنكرها..





أَنَا وَالسَّمَاءُ



اسمى يحيى شاكر ..

وأنا قبضى ..

ومن عادتي كلما قدمت نفسي لأحد ، ان
أعقب ذكر اسمى ، بذكر ديانتى .. قبضى ..
حتى لا يلتبس عليه الاسم ، فيعتقد انى
مسلم .. فإن اسمى كما ترى يحتل الديانتين ،

ويشترك بين المسلمين والأقباط ..

ولم تكن هذه هى عادتي دائما .. منذ خمس سنوات فقط ، لم يكن اسمى
يسبب مشكلة فى حياتى ، ولم يكن يهمنى أن أحسب بين المسلمين أو بين
الأقباط ، وأكثر من ذلك ، لم أكن أشعر انى قبضى ، أو انى لست مسلما ، لم
يكن الدين مشكلة فى حياتى .. فأنا لست متدينا ، وأبى ليس متدينا ، وليس
معنى ذلك انى وأبى منحلان أو ملحدان ، ولكننا فقط لا نتمسك بالطقوس
الدينية ولا نحسب لها حسابا فى برنامجنا اليومى ، وأمى وحدها هى التى
تذهب الى الكنيسة وتحتفل بالمناسبات الدينية ، ولكن ذهابها الى الكنيسة لم
يكن يثير فى عقلى معنى دينيا .. كنت أحس بها وهى ذاهبة الى الكنيسة كأنها
ذاهبة لزيارة إحدى صديقاتها مجرد احساس بأنها خارجة من البيت .. كما
كان احتفالها بالمناسبات الدينية لا يثير فى الاحساس بالمناسبة نفسها ..
كان كل ما اهتم به هو ما يقدم فى هذه المناسبات من الكعك والحلوى ..
ورغم ذلك فإننى ..

ولأروى لك القصة من أولها :

لقد كنت فى التاسعة عشرة من عمري عندما التقيت بسعاد لأول مرة ..
كنت واقفا فى الطابور أمام شباك سينما مترو .. أتقدم نحو الشباك خطوة
خطوة ، وعندما لم يعد أمامى سوى شخص واحد ، اقتربت منى سعاد ،
وقالت فى حياء وهى تبتسم ابتسامة كقطعة السكر :

— تسمح تقطع لى تذكرة معاك ..

والتقيت بعينيها الضاحكتين ، ووجهها الأسمر ، وشعرها الأسود

المنسدل على كتفها كوشاح من الليل.. وأبدت استعدادى مباشرة لأشتري لها تذكرتها.. ولكنها كانت تريد ثلاث تذاكر.. كان معها صديقتان.. وطبعاً.. حجزت مقاعدهن، وحجزت مقعدى بجانبهن، وكانت حفلة الساعة الثالثة..

وتركتهن يدخلن دار السينما قبلى، ثم لحقت بهن، ووجدتها جالسة بين صديقتيها، ونظرت إليها نظرة أسفة ثم جلست بجانب صديقتها.. ولكن البنات ما ليثن أن تهامسن، ثم انتقلت سعاد وجلست بجانبى.. وقلت وأنا أحس بقلبي يقفز إلى حلقى:

— الكراسى كويسة؟

قالت :

— كويسة قوى.. مرسى.. ثم بدأنا نتحدث.. ولا أدري كيف اتصل بيننا الحديث سهلاً صافياً ، ليس فيه افتعال ولا تصنع.. كأننا كنا نخترن كل هذا الكلام ليقوله كل منا للآخر يوم لقائنا..

وانتهى القيلم وقد شغلنا عنه الحديث.. وخرجنا على موعد..

ولا أطيل عليك.. لقد أحببتها.. وأحبتنى.. وفى خلال ثلاثة أشهر، كانت حياتى كلها تدور حول هذا الحب.. أعف وأقوى حب يمكن أن يخطر على قلب شاب فى مثل عمرى..

وعرفت عنى كل شىء.. عرفت انى نلت شهادة التوجيهية وأن أبى يملك محلاً كبيراً لبيع الأقمشة فى الموسكى.. وأنى أشتغل معه.. وأنى فى خلال عامين سأنشئ محلاً آخر أديره بنفسى فى شارع ٢٦ يوليو.. و..و.. لقد عرفت عنى كل شىء فى خلال هذه الشهور الثلاثة.. كل شىء.. أو هكذا اعتقدت..

الى أن كان يوم.. يوم أحد.. والتقىنا كعادتنا عند أول كوبرى قصر النيل.. وبدأنا نسير على الكوبرى

لنجلس — كعادتنا أيضا — في الكازينو المقام هنا على الضفة الأخرى.. وقلت لها خلال حديثنا.. وبكل بساطة:

— النهاردة ماما راحت الصبح الكنيسة.. ورجعت مصممة انها تجوزنى..و..

وقاطعتنى وقالت وهى تنظر إلى فى بلاهة:

— مامتك راحت الكنيسة؟

قلت وأنا أنظر إليها فى دهشة:

— أيوه !..

وارتعشت ابتسامة غريبة على شفتيها، وقالت:

— هى مامتك مسيحية؟

قالتها كأنها تكذب نفسها، وأجبتها ببراءة:

— طبعا..

واتسعت عيناها، وازدادت ارتعاشة الابتسامة فوق شفتيها، وعادت تقول:

— وأنت ، انت مسيحي؟..

ووجمت، شىء فى داخلى أشعرنى بأنى مقبل على اكتشاف خطير، مخيف، وقلت وأنا أنظر إليها كأنى أبادلها بلاهتها:

— أيوه!

وسكتت، واتسعت ابتسامتها، الابتسامة المرتعشة الفارغة، ثم ضحكت، ضحكة خافتة عصبية، وسرنا صامتتين، وأنا واجم، وهى واجمة.. عقلى مشلول، لا أستطيع أن أتبين بالضبط ما حدث.. شىء كبير حدث، ولكنى لا أستطيع أن أتبينه، ولا أستطيع أن أسألها عنه، وعشرات الكلمات تتزاحم فوق لسانى، بينها كلمات اعتذار وكلمات توسل، وكلمات ثورة، وكلمات غضب، ولكنى لا أستطيع أن أنطق إحداها!

ووصلنا الى الكازينو، وجلسنا الى المائدة التى اعتدنا أن نجلس عليها، وجاؤنا أن نتكلم، كلاما عاديا، كان كل منا يحاول أن يتجاهل الشىء الخطير الذى حدث، ولكننا لم نستطع أن نستمر فى الكلام، لم نستطع

حتى ان ينظر أحدهما الى الآخر، ومرت بيننا فترة صمت طويلة، وكل منا تائه العينين، يطل بهما في النيل، كأنه يبحث عن شيء ضاع منه، ثم فجأة انهمرت الدموع من عينيها.. بكت، ورأيت دموعها، ورأيتها، تخرج منديلها الصغير لتخفى به دموعها، ثم قالت وهى تحاول أن تكتم نשיجها:

— أنا لازم أروح دلوقت..

قلت فى صوت خافت ضعيف:

— ليه؟..

قالت :

— كده ، لازم أروح!

قلت وأنا أنظر إليها فى توسل :

— مش أحسن تقعد نتكلم !

قالت فى يأس :

— لا ، فيش لازمة، أروح أحسن، بدل ما نعتب بعض!

ثم قامت واقفة! وأدارت لى ظهرها، وأبتعدت فى خطوات سريعة، وأنا لا زلت جالسا فى مكانى، لا أستطيع أن أتحرك، أنظر خلفها كأنى أنظر الى قلبى يطير من صدرى!..

وبدأت ساعتها أفهم !

لقد كانت تعتقد أنى مسلم، اختلط عليها اسمى، وأحببتنى على أنى مسلم.. وأنا، فى كل ما ذكرته لها عن نفسى، نسيت أن أنكر لها أنى قبطى.. لا، لم أنس، ولكن لم يخطر ببالى أن أقول لها إذا كنت قبطيا أو مسلما، لم يكن هذا شيئا مهما بالنسبة لى، لم تكن ديانتى مشكلة فى حياتى حتى أنكرها لها، لم أكن أشعر أنى قبطى أو أنى لست مسلما، كان كل ما أشعر به هو أنى أحبها، وهى تحببى!

ولكن أفقت..

عرفت أنى قبطى!..

وعرفت ان اسمى قد يخدع بعض الناس، وأنها خديعة فعلا.. لأنى

لا أملك أن أحدد كل تصرفاتى، ولكن السماء هى التى تحدد لى كثيرا من شئونى..

وأشد ما أَلمنى ساعتها هو انى اكتشفت انى خدعت سعاد، دون قصد...
وخشيت أن تكون قد اعتقدت هى أيضا انى خدعتها..
وأذكر ليلتها انى حملت عذابى وذهبت لأسهر فى كاباريه «البيروكيه»
وجلست مع شلة من أصدقائى، أسكر، وجاءت احدى الراقصات لتجلس
بيننا ، فوقفت مترنحا أقدم لها نفسى:

— يحيى شاكر..

ثم بسرعة قلت لها:

— قبضى..

وقبَلتنى الراقصة على خدى وهى تقول:

— ياختى عليه..

ومن يومها.. تعودت كلما تعرفت بصديق جديد، أو بفتاة، أو بشلة..
أن أنتهز أقرب مناسبة لأعلن لهم انى قبضى حتى لا يلتبس عليهم الاسم،
حتى أستطيع بعد ذلك أن أعيش بوضوح..



نسيت أن أقول لك..

لقد أرسلت لى سعاد بعدها خطابا طويلا.. لم تلمنى فيه، ولم تتهمنى
بخداعها.. قالت لى انها تحبنى.. ولكنها تفضل أن تتحمل عذاب حرمانها
من حبها، عن أن نتعرض كلانا لعذاب اكبر..
ورغم ذلك..

فلا زلت كلما ذكرت اسمى ، أذكر معه ديانتى.. حتى أعيش بوضوح..





لا أملاك شيئا

أخيرا ..

أخيرا عرفت سر عذابى، عرفت لماذا
قضيت عمري كله شاردة العقل موجوعة
القلب، أبدو أحيانا كأنى مجنونة، وأحيانا
أبسدو كأنى أعقل بنت فى القاهرة، وأسأل
نفسى فى فترات جنونى: لماذا جننت؟ وأسأل
نفسى فى فترات تعقلى: لماذا أنا عاقلة؟ فلا



أدرى سببا لجنونى ولا لتعقلى!

ولم يكن فى حياتى شيء أستطيع أن أشكو منه!

نشأت فى عائلة ثرية، تحبنى وتدللى، وأبى وأمى مطلقان، طلقا وأنا فى
الثانية من عمري، وتزوج أبى من أخرى، وتزوجت أمى من آخر، ولكنى
لم أكن أشكو من شيء، فامرأة أبى تحبنى، وتعاملنى برفق وحنان، بل
انها أحيانا تغالى فى تدليلى، كأنى ابنتها، أكثر من ابنتها، ربما لأنها لم ترزق
بأولاد.. وكذلك زوج أمى، إنه يحنو على دائما، ويبرر دائما تصرفاتى،
ويقف بجانبى فى كل مرة اختلف فيها مع أمى، ولم يحدث أبدا أن اختلفت
مع زوجة أبى، أو زوج أمى.. لم ينهرنى أحدهما مرة، أو يسبب خدشا فى نفسيتى!
وكان لى فى كل بيت حجرة خاصة بى، فى بيت أمى حجرة، وفى بيت أبى
حجرة، وكنت أتنقل بين البيتين كما أشاء، دون أن يعترض أبى أو تعترض أمى.
ولكنى لم أكن أستريح فى أحد البيتين..

نفسيتى لم تكن تستريح..

كنت أحس دائما أنى أريد أن أهرب.. لا أكاد أبقي فى بيت أياما حتى
يضيق قلبى، فأهرب إلى البيت الآخر.. ولا أكاد أبقي فى البيت الآخر أياما
حتى أعود إلى البيت الأول..

ونفس الاحساس كان ينتابنى كلما جلست مع أبى وأمى!

كنت لا أكاد أجلس مع أبى، حتى أحس بأنى مشتاقة إلى أمى.. بل أحس
أنى أحب أمى أكثر من أبى.. وأذهب إلى أمى، ولا أكاد أجلس معها.. حتى
يдахمنى شوق إلى أبى، وأحس أنى أحبه أكثر.. أكثر من أمى..

وحتى اقتناعي بشخصية وحياة كل منهما.
كنت أحياناً أقتنع بأن شخصية أبى هى شخصية الرجل المثالى،
والحياة التى يعيشها هى الحياة التى أريدها.. الحياة المثالية.. ثم لا ألبث
أن يتحول اقتناعي ناحية أمى رغم الخلاف الكبير بين شخصيتها وحياتها
وشخصية وحياة أبى..

ومع الأيام كبرت هذه الأحاسيس فى نفسى، وأصبحت أحس كأنى أريد
أن أهرب من البيت، وأهرب من الشخصيتين أصبحت لا أستريح إلا بعيداً
عن البيتين، وعن أبى وأمى..
وأصبحت أهرب فعلاً..

أهرب الى أين؟

الى الشبان..

كنت لا أكاد ألتقى بشاب حتى أهرب معه فى لقاء يدوم ساعة أو
ساعتين، أستريح فيهما.. ثم أعود الى البيت - أحد البيتين - لأكتشف أنى
لا أحب هذا الشاب.. وأن دمه ثقيل، وأشعر كأنى أشمئز من نفسى،
ومنه.. ولكنى لا ألبث أن أعود فأهرب مع شاب آخر فى لقاء آخر..

وتعدد الشبان.. وتعدد لقائى بهم.. وأصبحت أكثر جرأة.. أكثر جنوناً..
وأذكر انى كنت فى السادسة عشرة من عمرى، عندما قررت أن أخرج للقاء
شاب فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. هربت من البيت - بيت أمى -
والكل نيام، وعدت قبل أن يصحو أحد.. عدت وشعور غريب من الراحة يملأنى
لا لأنى التقيت بشاب أحبه - فلم أكن أحبه - ولكن فقط لأنى هربت من البيت..
وفى هذه الأثناء بدأت تتنابنى رغبة خبيثة فى مضايقة زوجة أبى، وزوج
أمى.. كنت أفتعل المشاحنات معهما، وأثور فى وجهيهما، وأنتقى فى نقاشى
كلمات ثقيلة تجرحهما، بل إنى فى سررات كثيرة كنت أستطيع أن أجعل
زوجة أبى تبكى، وأن أجعل زوج أمى يفقد أعصابه، ثم بدأت أثور حتى على
أبى وأمى، وأجلب عليهما النكد والهم..

وكنت أعلم أنى أنا البائدة فى هذه المشاحنات..

أنا المخطئة..

لماذا؟

لماذا أفتعل المشاحنات مع ناس أعلم أنهم يحبوننى؟! لماذا أعكر حياة

أبى وأمى وهما لا يبخلان على بشىء!١٩٤
ولا أستطيع أن أجِد الجواب..
واحتملتُ الجميع..
احتملونى، وكلما ازدادوا احتمالا، ازدادت وقاحة وجرأة عليهم..
ثم..
فجأة أيضا، قررت أن أتزوج..
أصبح كل همى أن أتزوج..
ولم يكن من الصعب على أن أتزوج ولكنى لم أكن أفكر فى الزواج..
بالعكس، كان تفكيرى منصبا على الاحتفاظ بحريتى..
ماذا حدث حتى تغير تفكيرى فجأة؟
لا أدرى..
انما تزوجت..
وكان زوجى شابا رائعا يعيش مع أمه بعد أن توفي والده ويقيم معها فى
فيلا بناها حديثا فى المعادى.. وانتقلت لأعيش معهما..
وقد قلت أن زوجى كان رائعا..
وأمه أيضا كانت رائعة..
لقد أحببتنى أمه.. ودللتنى.. لم تدع يوما يمر دون أن تشعرنى بحبها،
ودون أن تقيم لى عرشا من اهتمامها وحنانها..
وأحببت زوجى..
وأحببت أمه..
نعم، اتى وثقة من أنى أحببتهما..
ولكن..
ما كادت تمر شهور قليلة، حتى بدأت نويات الرغبة فى الهرب تتناوبنى
من جديد..
وقاومت!
قاومت كثيرا!
ولكنى لم أستطع أن استمر فى المقاومة طويلا، فبدأت أهرب من بيت
زوجى الى بيت أبى لأقضى فيه أياما، ثم أهرب منه الى بيت أمى لأقضى
فيه أياما أخرى!

و...
وزوجى يطيعنى، يتركنى أذهب الى بيت أبى أو بيت أمى متى شئت
وأعود اليه متى شئت!
ولكنى أحسست أنى لن أكتفى بالهرب الى أمى وأبى.. بدأت أحس أنى
سأعود الى عادة الهرب مع الشبان!
بدأت أفكر فى خيانة زوجى!
لا!

مستحيل!
لن أرتكب هذه الجريمة!
ولم أرتكبها فعلا، ولكن المقاومة العنيفة التى بذلتها، والكبت الكبير
الذى عانيت، جعلنى امرأة عصبية، شبه مجنونة، فأصبحت أختلق
المشاحنات مع زوجى، ومع أمه، وأثور فى وجهيهما، وأهينهما، وأجرحهما!
زوجى الذى أحبه..
وأمه التى أحبها..

ثم..
لم أعد أطيق..
كان يجب أن أهرب..
وأخذت أسلم الطرق للهرب..
الطلاق!

نعم!
طلقت زوجى الذى أحبه..
وعشت أعيش فى بيت أبى أحيانا وفى بيت أمى أحيانا!
وأصبحت أنطلق انطلاقا عنيفة..
أصبحت تمر على شهور يتعدد خلالها عشاقى.. عشاق لا يربطنى بهم
حب، ولكن يربطنى بهم نوع من الهوس والانحلال الذى يدفعنى اليهم!
ثم تمر شهور أخرى أهدأ فيها، وأحفظ نفسى من العشاق، وأبدو
عاقلة، عاقلة جدا.. وترفع أمى كفيها الى السماء وتحمد الله..
ولكنى لا ألبث أن أعود..
أعود الى جنون الهرب..

وأخيرا !
 وأنا في الثلاثين من عمري، وفي فترة من فترات هدوئي، اكتشفت عقديتي ..
 اكتشفت سر عذابى !
 أتدرى ما هو السر؟
 السر أنى طول حياتى لم أملك شيئا ..
 لم أملك أبى فهو ملك لزوجته !
 ولم أملك أمى، فهى ملك لزوجها !
 ولم أملك زوجى، فهو ملك لأمه !
 والبيوت التى عشت فيها، ليس بينها بيت أملكه !
 بيت أبى ليس ملكى، ملك زوجته !
 وبيت أمى ليس ملكى، ملك زوجها !
 وبيت زوجى ليس ملكى، ملك أمه !
 وقد كنت طول حياتى غريبة فى هذه البيوت .. كنت دائما ضيفة ..
 والانسان لا يستطيع أن يحتل الشعور بالضيفة طول عمره، إنما يهرب
 منه الى الاحساس بالملكية .. حتى لو كانت ملكية ركن منزو صغير، لا يقاس
 بالقصر الذى يستضيفه ..
 ولذلك كنت أهرب ..
 كنت أهرب باحثا عن شيء أملكه ..
 وهذا هو سرى ..
 هذه هى عقديتي ..
 واسترحت عندما اكتشفت سرى ..
 عرفت طريقى ..
 انى سأزوج مرة ثانية ..
 وسيكون لى بيت .. بيت لى وحدى ومعى زوجى ..
 بيت أملكه ..
 وسألد ..
 سيكون لى ابنة .. انى أريدها ابنة ..
 ان أعنى مراتب الملكية هى الأولاد .. وستكون ابنتى هى الدنيا التى
 سأملكها ..



نانا



عزيزى احسان :

انى اعرف أنك غاضب منى منذ أن عدلت
عن خطبة انعام، وتركتها، وحطمت قلبها..
لا تحاول أن تفكر غضبك.. فانى لم أعد أرى
على وجهك هذه الابتسامة الكبيرة التى كنت
تستقبلنى بها.. ولم أعد أحس بحرارة يدك وانت
تصافحنى. ولم أعد أسمعك تحدثنى كعادتك عن أحلامك الكبيرة، وتعدنى
بأن تجبرنى على الاستقالة من الحكومة لتفرغ للعمل معك فى دار روز
اليوسف!!

ولك حق فى أن تغضب منى، وتتهمنى بالنذالة والسفالة.. كل ما أرجوه
أن تسمع قصتى، لعل فى قصتى ما يخفف من غضبك ومن قسوة اتهامك..
قصتى التى اخفيتها عنك منذ عرفتك.. قصة حياتى كلها.. وستعرف بعد
أن تسمع قصتى، انى عندما حطمت قلب انعام، حطمت قلبى مع قلبها..
وان العذاب الذى تعيش فيه انعام هذه الأيام، لا يقاس بالعذاب الذى عشت
فيه طول عمرى..

لقد نشأت.. كما تعرف.. فى مدينة المنصورة.. وكان أبى شيخا وقورا
يعمل إماماً لجامع هناك، ويعمل فى الوقت نفسه محامياً شرعياً.. وكانت
أمى امرأة صغيرة السن. تصغر أبى بأكثر من عشرين عاماً.. وكانت
مدللة، عنيدة، طاغية الشخصية.. استطاعت أن تمحو شخصية أبى من
جانبها، فأصبح الرجل فى بيته ضعيفاً، ذليلاً، ليست له كلمة ولا رأى..

وكنا ثلاثة إخوة.. ولدان، وبنت جميلة رقيقة هزيلة.. وكانت أمى قد
أطلقت على أنا وأخى، أسماء بنات.. أسمتنى «تاتاً» رغم أن اسمى المسجل
فى شهادة الميلاد هو: توفيق.. وأسمت أخى «مديحة»، رغم أن اسمه:
ممدوح.. وربما كان السبب فى تسميتنا بأسماء البنات هو منع الحسد عنا،
كما كانت تعتقد بعض الأمهات، ولكنى أعتقد أن السبب الأول هو دلال أمى
وميوعتها، وفرض عقليتها القاصرة علينا.. وقد ظلت أسماء البنات عالقة

بنا طول مدة اقامتنا في المنصورة.. وحتى بعد أن كبرت وأصبحت طالبا في كلية الحقوق.. ترك اسم «تاتاء» في نفسي شعورا دائما بالنقص.. لقد تعودت عليه.. لم أكن أغضب أو أثور عندما يناديني أحد أصدقائي باسم «تاتاء» ولكن رنين اللفظ كان يسقط في صدري، ويترك صدى مؤلما كأنه حد سكين يقطع في لحمي..

ومنذ وعيت الحياة وأنا أرقب تصرفات أمي، وأقارنها بتصرفات بقية الأمهات.. كانت تتزين زينة قاعة.. تلتطخ وجهها بكثير من الأبيض والأحمر والأسود.. وتقف في شرفة البيت وهي في ثوب فاقع اللون يكشف عن ذراعيها السميتين، وصدرها المنفوخ، وساقها المكتنزتين باللحم والشحم.. ثم تكثر من الخروج من البيت دون أن يعلم أحد أين تذهب، ودون أن يعترض أبي المسكين.. ولم أكن وأنا في هذه السن، أستطيع أن أفسر هذه التصرفات وأفهمها، ولكنني فقط كنت أقارنها بتصرفات أمهات أصدقائي.. وأشعر بالضيق.. ثم لا أستطيع شيئا إلا أن أذهب وأجلس صامتا بجانب أبي، واستمع إليه وهو يتلو القرآن.

وكبرت.. وأصبحت شابا.. وبدأت أفهم تصرفات أمي.. وبدأت التقط الهمسات التي تدور حولها.. عرفت أن أمي ليست امرأة فاضلة.. ولكنني لم أستطع أن أفعل شيئا.. كل ما كنت أفعله هو أن أهرب من أصدقائي، ومن الهمسات، وأختفي في الجامع الذي يؤم أبي المصلين فيه.. وأجلس على الأرض وأسند ظهري إلى الحائط.. وأشعر بالهدوء..

وكبرت أكثر.. وكل ما أفعله في الحياة هو أن أنجح في كل امتحان بدرجة ممتاز.. كنت أقبل على المذاكرة بنهم.. كأني أهرب وأخفي نفسي بين صفحات الكتب والكراريس.. أهرب من صورة أمي، ومن تصرفاتها.. ثم أصيب أبي بالشلل.. رقد في البيت جثة هامدة لا يبدو عليها من آثار الحياة الا ترنم خافت بآيات القرآن..

وزدادت أمي فجورا..

كسنت تترك أبي المريض، وتخرج من البيت، ولا تعود الا في الليل.. وأحيانا تغيب أياما وليالي.. وأجلس أنا وأختي الهزيلة حول فراش أبي.. أختي تناوله الدواء، وأنا أقرأ له في القرآن..

ثم فوجئنا يوما بزيارة عمى الصغير.. انه اخ غير شقيق لأبى وهو
يضفر أبى كثيرا.. شاب لا يتعدى الثلاثين من عمره.. أصغر من أمى
أيضا.. ولم يكن من عادته أن يزورنا حتى في المناسبات التى تستدعى
الزيارة.. كان دائما بعيدا عنا وعن بيتنا..
وعرفنا أنه جاء بناء على دعوة أمى..

وأصبح يجىء كل يوم.. ولم يعد يكلف نفسه أن يدخل الى غرفة أبى
ليطل عليه.. بل كان يجلس مع أمى.. وأحيانا يجلسان في شرفة البيت..
حتى ساعة متأخرة من الليل.. الى أن ننام - أنا وإخوتى - أو نتظاهر
بالنوم..

ثم أصبح عمى يجىء ومعه أصدقاؤه ويجلسون في الشرفة، يشربون
البيرة، وأمى معهم، والأصباغ تلتطخ وجهها، وثوبها الفاقع يكشف عن
ذراعيها السمينتين.. وجثة أبى في الغرفة المجاورة لا تستطيع أن تتحرك،
ولا أن تغضب.. فقط تتنفس آيات القرآن..

وأصبح الهمس الذى يدور في البلدة صراخا.. والأولاد يتجمعون تحت
شرفة بيتنا ويقذفون أمى وضيوفها الذين يشربون البيرة، بالشتائم،
وأحيانا بالطوب.. وأسمع أمى وأنا جالس بجانب جثة أبى، وهى تسرد
شتائمهم، وتدلّق عليهم الماء القذر.. وأقضى الليل وأنا أفكر في وقف
هذه الفضائح التى تعيش في بيتنا.. لماذا لا أجبر أمى على أن تحترم
نفسها وتحترم البيت.. لماذا لا أضربها.. لماذا لا أطرد هؤلاء الذين يشربون
البيرة..

نعم سأفعل.. سأفعل.. ولكنى ما أكاد ألتقى بوجه أمى في الصباح حتى
تذوب أحلامى، وتذوب قواى وتذوب شخصيتى..
والذى أصبح عظاما.
وأختى تزداد هزالا..

وأخى «مديحة» انقطع عن المدرسة وتشرّد..
ونلت التوجيهية، وهربت الى القاهرة لألتحق بالجامعة.. واعتقدت انى
سأستريح.. سأتنسى.. سأستعيد شخصيتى.. ولكن لا.. ان كل شيء

راقداً في نفسه.. وجه أمي ملطخ بالأصباغ، وذراعاها السمينتان.. وعمي الشاب.. والأصدقاء الذين يشربون البيرة.. وجثة أبي.. وأختي الهزيلة.. وأخي «مديحة» وشخصيتي الضعيفة..

وكان عليّ أن أعود إلى بيتنا في الأجازة.. ووجدت الحال كما هو.. وازداد أصدقائي جرأة، فبدأوا يطلبون مني أن أضع حداً لمجون أمي وعهرها.. وكنت أقول لهم.. انتظروا إلى أن أنال الليسانس، حتى لا تحرمني أمي من المال.. وهي المسيطرة على كل ما نملك.. فلا أستطيع أن أتم تعليمي.. ولم يكن هذا صحيحاً.. فلم يكن حرصي على الاستمرار في العلم هو سبب سكوتي على تصرفات أمي.. ولكنه ضعفي.. وأنا اسمي «تاتا» وليس توفيق.. لو كان اسمي توفيق، فربما استطعت أن أوقف أمي عند حدها.. ولكن اسمي تاتا.. تاتا، أمام أمي.. وتاتا، أمام أصدقائي.. وتاتا، أمام نفسي..

ثم مات أبي..

ولم تنقض ثلاثة أيام على موته.. حتى باعت أمي البيت الذي نملكه في المنصورة.. ثم دعتني أنا وأخي وأختي، وأعطت لكل منا نصيبه في ثمن البيت.. كان نصيبي ألفاً وثمانمائة جنيه وكذلك أخي.. وأختي النصف.. ثم اختفت أمي.. هربت مع عمي ليقاما في الإسكندرية.. وتركنا وحدنا.. واختفى أخي في عالم التشرد.. وأخذت أختي لتقيم معي في القاهرة حتى أتم دراستي.. ولكن أختي ما لبثت أن مرضت بالسل.. وماتت.. وعشت وحيداً.. معذياً.. منطوياً.. في صدري صور كالأشباح تملأه بالصراخ.. وجه أمي الملطخ بالأصباغ.. وذراعاها السمينتان.. وعمي.. والأصدقاء الذين يشربون البيرة.. وجثة أبي التي تتنفس آيات القرآن.. وأختي الصفراء التي أكلها السل.. و.. تاتا..

ونلت الليسانس بدرجة ممتاز..

واستطعت أن أحصل على وظيفة في النيابة..

ثم..

ثم قابلت انعام..

أحببتها.. وأحبتنى .. لم يداخلنى الشك فى حبها أبدا..
وكننت أعلم أنها فاضلة.. أفضل البنات.. وأكثرهن اتزاناً..
كان فيها كل ما أريده.. وجهها الهادىء الذى لا تمسه الأصباغ وثيابها
المحتشمة التى تغطى صدرها، وذراعيها.. وحديثها الرائق كقطرات الندى..
ولكن.. ولكنى كنت كلما نظرت إليها تذكرت أمى.. تذكرت الوجه الملطخ
بالأصباغ، والذراع السمينة.. وعمى.. والأصدقاء الذين يشربون البيرة..
وجتة أبى.. وتاتا..

ولم تكن تعرف أن اسمى فى المنصورة هو «تاتا».. كانت تناديني دائماً
بتوفيق.. ولكنها كلما همت أن تفتح شفيتها لتناديني، خيل إلى أنها ستنادى
«تاتا».. لا أدري لماذا.. ولكن هذا ما كان يحدث لى .. وقد حاولت أن أقاومه..
حاولت أن أنسى أمى وكل ما أحاط بحياتى.. وحاولت أن أثبت لنفسى أنى
أقوى شخصية من أنعام.. فكنت أفتعل معارضة لآرائها وتصرفاتها..
ولكنها كانت تنتصر على دائماً دون تعمد.. لأن آراءها وتصرفاتها كانت
دائماً صحيحة، ولكنى كنت أحس أنها انتصرت على لأن شخصيتها أقوى
من شخصيتى.. كما كانت شخصية أمى أقوى من شخصية أبى..
وحاولت أكثر من ذلك..
خطبتها..

خطبتها لأتغلب على احساسى بالنقص.. لأزاد ارتباطاً بها.. لأسد فى
وجهى طريق التردد والخوف..
ولكن، لا أمل..

انى لا أزال أرى فيها وجه أمى.. وأرى فى نفسى شخصية أبى..
ثم لم أعد أستطيع..
فسخت الخطبة..

وأنا أعلم أنه ليس ذنب أنعام، فلو كانت أية فتاة أخرى لفسخت
خطبتها.. ولكنه ليس ذنبى أيضاً..
أرجوك..
لا تغضب منى..



المجنونة



عزيزى احسان :

هل الله رجل؟

أستغفر الله ان كان فى سؤالى كفر.. فانى
احبه.. أحب الله.. انه سئدى، وكل أملى.. لم
يعد لى سئد، ولا أمل غيره..
ورغم ذلك فسئنى لا أستطيع أن أكف عن

التسائل: هل الله رجل؟

انى اكتب اليك من بعيد..

• بلادى كانت صحراء.. ذهبها رمال وخيرها فى شهامة أهلها وزهدهم
وايمانهم.. ليس فيها من زهور الا بناتها.. وليس فيها ما يدلك على الطريق
الا القمر والنجوم.. وليس فيها ما يبدد وحشتها سوى همسات الحب..
وفجأة أفاض الله على بلادى بخير جديد..

خير أسود.. اسمه البترول!

واختص الله بهذا الخير، الرجال وحدهم.. وترك البنات يعشن فى

صحراء.. بلا بترول!

الرجال وحدهم هم الذين تغير حالهم.. الذهب يجرى فى أيديهم.. ذهب
ليس فى لون رمال الصحراء.. انه فى لون السويسكى، وفى لون شعور
الشقراوات من البنات الاجنبيات، وفى لون الوجوه المنهوكه التى أنهكها
الافراط.. ونحن.. نحن البنات.. بقينا على حالنا.. تغير الثوب البدوى الذى
نرتديه وأصبح ثوبا من طراز «الشوال»، و«التراييز»، و«البرنسييس»
وعرفنا «الجيبون» و«السوتيان»، و«الجيبور».. و.. ما عدا هذا لم يتغير منا
شئ.. اننا لا زلنا نعيش خلف الحجاب.. وخلف الجدران.. ولا زالت تقاليد
الصحراء تحكمنا.. ولا زال الأب والأخ وابن العم، يقيمون حولنا قضباننا
من الحديد.. من أتانى الرجل، وقسوته، وبدائيته..

وقد كانت هذه التقاليد محتملة يوم كانت تحكم الرجال والنساء على
السواء.. لقد كنا وسط هذه التقاليد.. رغم كل ما فيها من أنانية وبدائية..

نعرف طريقنا الى الرجل، وكان الرجل يعرف طريقه اليّنا.. كنا كلنا في سجن واحد.. ولكن الرجل صنع من البترول مفتاحا للسجن، وخرج منه وحده، وتركنا فيه، وأغلق الباب وراءه، واحتفظ بالمفتاح في جيبه.. أصبحنا نحن وحدنا في السجن، والرجل طليقا حرا.. فلم نعد نعرف طريقنا اليه، ولم يعد يعرف طريقه اليّنا..

وأنا لم أولد وكل هذه الخواطر في رأسي.. لا.. لم أكن أشعر بثقل التقاليد.. ولم أكن أشعر بأنني في حاجة الى المطالبة بحق.. كانت حياتي كلها حبا..

أحببت ابن عمي..

وربما أحببته يوم ولدت.. وربما قبل أن أولد.. ولكنني وجدتني بجانبه عندما فتحت عيني على الحياة.. بجانبني وأنا لا زلت رضيعا.. بجانبني ونحن نلعب سويا في ساحة الدار.. بجانبني وأنا في العاشرة من عمري وقد بدأت أنوثتي تنطلق في اعطاف..

وفي هذا العمر أصبح حبي حقيقة وأملا مرتقبيا.. انني سأتزوج.. لم يحدثني أحد عن الزواج.. ففسي بلادنا لا يتحدث البنات عن الزواج، ولا يحدثهن أحد عنه، كأنه خطيئة لا يتداول سيرتها إلا الشياطين.. ولكنني اعتبرت نفسي زوجة له وعشت هادئة.. أهدأ من عمري.. في انتظار اليوم الموعود.. لم أكن ألعب لعب البنات، ولا أهتم بما يهتم به البنات، كان في قلبي سعادة غامرة.. تغنيني عن اللعب وعن الصديقات.. وكنت كلما جاء ابن عمي اليّنا، والتقيت بعيني، أحسست بدمائي تزغرد في عروقي.. أحسست كأنني أزف اليه.. ولم يكن بيننا أبدا أكثر من هذا اللقاء.. لقاء عيني بعيني، ولمسة يدي ليده وهو يصافحني..

وكنت أعرف نصيبي من الحياة بعد الزواج.. انه نصيب لا يزيد عن نصيب أمي.. سأبقى في البيت أنتظره مهما طال انتظاره.. ولن آخذ منه الا هذه اللحظات التي يتفضل بها عليّ، وربما شممت من قمه رائحة الخمر التي تقوح من فم أبي.. وكنت راضية بهذا النصيب، لم أطمع أبدا في أكثر منه، لم يخطر لي أن أثور على التقاليد، أو أنتقدتها.. ولم أكن أحس بهذا

السجن الكبير الذى يضمنى وكل بنات بلدى.. كنت سعيدة، هادئة، هادئة دائماً..

وأسمونى فى البيت، العاقلة!

الى أن كان يوم..

وتقرر أن يسافر ابن العم الى خارج بلادى ليتلقى العلم.. هكذا قالوا، ليتلقى العلم!

وانقبض قلبى، وتوجست خيفة.. أحسست بدمائى تهرب منى، وقضيت أياماً مذهولة، لا أستطيع أن أنظر فى قلبى، حتى لا أفجع.. لا أستطيع أن أحادث نفسى، حتى لا تهزمنى نفسى..

وجاء يودعنا، ووقف قبالتى، وعيناه فى عينى، ويده فى يدي.. وتجرات وقلت، وأنفاسى تنهدج:

— لعلك لا تسلوننا يا ابن العم..

وأجاب وصوته القوى يسرى كالنغم فى أعصابى:

— متى استطاع الانسان أن يسلو دمه..

وسافر..

وبقيت فى انتظاره عامين، لا يصلنى منه الا ما يقوله فى خطابات له.. وتحديات يرسلها باسمى.. وكان يكفينى منه هذا.. يكفينى أن أعلم أنه يكتب اسمى بيده..

وعاد..

عاد وفى يده زوجة أجنبية.. بيضاء، شقراء، مكشوفة الصدر، والذراعين، مصبوغة الوجه.. لا يبدو عليها أثر من آثار السجن الذى تعيش فيه، كل شىء فيها منطلق جرىء.. نظراتها، وابتهاماتها، وكلماتها!

ووقفت واجمة، كأنى أصيبت بسهم الله، وابن عمى وزوجته واقفان أمامى.. ولم أكن أنظر اليه، كنت أنظر اليها، أبطلق فيها!

وحاول من حولى أن يخرجونى عن ذهولى.. أن يجعلونى أتكلم.. وصرخ فى ابن العم حتى لا تضيق زوجته بنظراتى.. ولم أتحرك، ظللت هكذا دقائق، ساعات، لست أدرى.. ثم جريت من أمامها.. وهرعت الى مرأتى،

أنظر فيها الى وجهى الأسمر وشعرى الأسود.. ثم أمسكت بقطعة من الليف الخشن، وأخذت أحك بها جلد وجهى فى قسوة.. بكل قسوى لعلنى أستطيع أن أصبح بيضاء.. مثلها!

ولكن، كل ما حدث أن انبثقت الدماء من بشرتى..
وانهرت باكىة..

وعرفوا انى أحبه.. أحب ابن العم، وحاولوا أكثر أن يخفوا خبر حى عن أبى، حتى لا تقع المصيبة الكبرى!

كم بكيت، أياما، شهورا.. لست أدرى، أيضا. ولكنى كنت أفيق من بكائى، فأرى الدنيا تهتز من أمامى، وطنين يملأ رأسى، وأشباح سود تحيط بى.. وأفكار عجيبة جريئة تتراءى لى!

واستطعت أن أشتري من السوق — بواسطة جاريتى — أنواعا من الأصباغ. وأخذت أقف أمام المرأة وأصبع شفتى بالأحمر.. وأضع البودرة على وجهى، وأمزق ثوبى عن صدرى، وعن ذراعى، لأبدو مثلها.. مثل المرأة التى أعجبت ابن عمى. فتزوجها!

وأسمونى فى البيت : المجنونة !

وأصبح كل همهم أن يخفوا جنونى، حتى لا يعرفه أهل بلدى!
وبعد شهر زواجونى.. ولم أكن أستطيع الرفض.. لأن أحدا لم يسألنى، حتى أوافق أو أرفض.. زوجونى فى الخامسة عشرة من عمرى، رجلا فى الخمسين من عمره، تزوج قبلى مرتين.. وسكت متظاهرة بالهدوء الى أن كانت ليلة زفافي.. وما كاد الرجل يقترب منى حتى صرخت.. صرخت بأعلى صوتى، وظللت أصرخ حتى فتحو علينا الباب.. وصفعتنى أمى.. وصفعتنى أختى.. وصفعتنى الرجل العجوز الذى زوجونى له.. ولكنى ظللت أصرخ، وأصرخ.. ثم أقوم وسط الحجرة وأرقص.. ثم أغنى.. ثم أصرخ.. ثم أبكى!

ولم أكف عن البكاء والصراخ، الا عندما آمن الرجل انى مجنونة!
وحملونى الى بد قريب، وأدخلونى فى مستشفى لمرضى الأمراض العصبية.. مستشفى المجانين!

ولم أكن مجنونة!
كل ما حاولته هو الهرب من قدرى!
وكل ما بقى من مظاهر جنونى هو أنى لا أكف عن التساؤل:
هل الله رجل؟
إن كل بنات بلدى يسألن نفس السؤال..
فهل هن أيضا مجنونات؟!



السكربتيرة والزوجة

أنا سكرتيرة الأستاذ عصام عبدالرحمن !
وكلكم تعرفون الأستاذ عصام.. تقرأون
له مقالاته وقصصه، وتسلمون له عقولكم
وقلوبكم ليقودها بقلمه!
ولكنكم لا تعرفوننى!
وأؤكد لكم أنكم لن تعرفوا الأستاذ عصام الا



إذا عرفتموننى!

لقد التقيت به لأول مرة منذ خمس سنوات، عندما ذهبت اليه في مكتبه
بدار الجريدة، ومعى خطاب توصية من أحد أصدقائه، لأشغل وظيفة
سكرتيرة خاصة له.. وكنت أتخيله كما يتخيله كل قرائه.. كهلا في الخمسين
على الأقل.. جادا وقورا.. خبيثا.. مغرورا.. ولكنى وجدتة انسانا آخر.. شابا
قد يزيد عمره عن الخامسة والثلاثين، ولكنه يبدو في الثلاثين.. بسيطا الى
حد السذاجة.. متواضعا بلا تكلف كأنه لا يعرف نفسه!

ودخلت اليه بلا مقدمات.. قلت للساعى الواقف في الصالة الخارجية:

— الأستاذ عصام من فضلك!

فأشار بيده الى أحد الأبواب، وقال دون أن يتحرك من مقعده:

— تفضل..

وطرقت الباب طرقات خفيفة ولم يرد أحد.. وطرقته طرقات أشد فلم
يرد أحد أيضا، ففتحت الباب ودخلت ووجدته جالسا وراء مكتبه يكتب..
وظللت واقفة أمامه بضع دقائق وهو لا ينتبه الى .. ثم اضطررت أن أنبهه
قائلة:

— تسمح يا أستاذ..

ورفع رأسه وما كاد يلمحنى حتى ابتسم ابتسامة كبيرة، لم تستطع أن
تمسح خطوط الاتهاك من فوق جبينه، والنظرات الشاردة في عينيه!

وقدمت اليه الخطاب، وقلت في أدب:

— أنا بعنتنى الأستاذ عمر، علشان..

وقاطعنى فرحاً:

— انتى السكرتيرة؟

قلت:

— بإذن الله!

قال وهو يقوم واقفاً ليصافحنى:

— أنا قلت لهم يخطوا لك مكتب فى الأودة الى جنبى.. وأنشاء الله

حنقدر نتعاون سوا!

قلت فى دهشة:

— أنا خلاص اتعينت؟!

قال وهو لا يحاول أن يقرأ الخطاب الذى قدمته اليه:

— انتى مش عايزة تبقى سكرتيرة؟ خلاص!!

قلت وأنا أبتسم فى وجهه كأنى ابتسم فى وجه طفل:

— بس لازم أعرف اختصاصاتى.. أعرف سيادتك محتاج لى فى ايه!

واختفت الابتسامة من على شفتيه، ومرت على وجهه سحابة من الحيرة.. وعاد يجلس وراء مكتبه، ثم أشار لى بيده لأجلس على المقعد المقابل.. وقال فى صوت كسول كأنه يحلم:

— أنا الحقيقة ما أعرفش اختصاصات السكرتيرة تبقى ايه.. أنا عمري ما كان عندى سكرتيرة.. وعمري ما فكرت ببقى لى سكرتيرة.. إنما أصحابى كل ما يشوفونى تعبان فى شغلى، يصمموا على أن أجيب سكرتيرة.. ومتها لى أن شغلة السكرتيرة، زى شغلة ست البيت. مراتى بتنظم لى حياتى فى البيت، والسكرتيرة تنظم لى حياتى فى الشغل.. وأنا عمري ما أعرف أنظم حاجة.. أنا أقدر أكتب لك كتاب فى تنظيم الدولة.. إنما أعجز عن انى أنظم درج مكتبى، أو أنظم وقتى.. أنا شغلى كله ملخبط، أوراقى ملخبطة.. وكتبى ملخبطة.. ومواعيدى ملخبطة.. ومتها لى انى لو نظمت الحاجات دى كلها حاشا أقدر انتج أكثر. واستريح أكثر.. ومش بس كدة.. متها لى ان اختصاص السكرتيرة، انها تبقى حنة من عقلى.. تدخل جوه عقلى وتنظمه.. عقلى زى الراديو فيه محطات كتير.. فيه سياسة

واجتماع ومقالات وقصص ومحاضرات.. ومفتاح الراديو ده لازم يكون في ايد أمينة فاهمة.. تدوره زى ما هى عايزة.. تدوره على المحاضرات يقول محاضرات!

وسكت الأستاذ عصام برهة، ثم استطرد:
— متهيألى انى بأقول كلام خيال.. زى ما أكون باحلم!
قلت:

— أبدا.. سيادتكم فاهم شغلة السكرتيرة كويس!
وابتسم ابتسامة صغيرة، ثم فتش درج مكتبه، وأخرج حزمة من المفاتيح، ناولها لى، قائلاً:

— دى كلها المفاتيح اللى حيلتى.. مفاتيح مكتبى، ومفاتيح الدواليب اللى فى الأوده دى، والأوده اللى جنبها.. دواليب مليانة أوراق ودوسيهات ومراجع.. ولازم كلها حاجات مهمة بدليل انى احتفظت بيها.. انما ما أقدرش أقول لك هى ايه، لانى ناسى أنا شايل ايه ورميت ايه.. ولما باعوز حاجة من الدواليب دى باقعد جمعة وجمعتين أدور عليها ويمكن مالقيهاش!

وقمت لأخرج وأنا مذهولة من الثقة التى وضعها فى دون أن يعرفنى.. انه لم يسألنى شيئاً، لم يسألنى حتى عن اسمى.. والتفت اليه قبل أن أخرج من الباب، وقلت له:
— أنا اسمى خديجة!

ولكنه كان قد عاد وأمسك بقلمه وبدأ يكتب.. فلم يسمعنى!
وابتسمت وخرجت!

وهكذا بدأ عملى مع الأستاذ عصام عبد الرحمن..
وقد وجدت فى الدواليب كنوزاً مهمة.. قصصاً رائعة كتبها عصام، واحتفظ بها ليعدها للنشر ثم نسيها.. وعقوداً لم تسدد قيمتها، ملقاة وسط وثائق سياسية، و..و..و. وقضيت شهرين وأنا أنظم هذه الكنوز فى مجموعات متناسقة مرقمة.. ثم بدأت أفهم عمل الأستاذ عصام.. وأفهم عقليته.. وتصرفاته.. وأدرس أعصابه.. وبدأت أتدخل فى كل شىء.. كل

شئ.. حتى انى كنت أعد أعقاب السجائر التى يتركها فى المنفضة بعد أن يخرج، لأعرف كم سيجارة دخنها.. وأذوق القهوة التى يشربها حتى أتأكد من أن عامل البوفيه لا يغش البن.. وكنت أطوف بالمكتبات قبل عودتى للبيت، لأشترى له الكتب الحديثة وكنت أقاوض ناشرى قصصه.. واستطعت أن أرفع ما يدفعونه له الى ثلاثة أضعاف.. وكنت أنا التى أقبض له نقوده.. وأنا التى أضعها له فى جيبه.. وفى الوقت نفسه جعلت من مكتبه قطعة من الجنة.. قطعة مشرقة.. منيرة.. أزينها كل يوم بوردة حمراء!

ولم أكن أستطيع تنظيم الأستاذ عصام، الا اذا نظمت علاقته بكل من يشتغلون معه فى الدار.. سواء من المحررين أو السعاة.. وحاول هؤلاء أن يتمرّدوا على، وأن يتحدوا سلطاتى.. ولكنى استطعت أن أخضعهم وأطوى ثورتهم.. فلم يعد واحد منهم يستطيع أن يتصل بالأستاذ الا عن طريقى.. ولم يعد الأستاذ يبتسم لواحد منهم الا اذا ابتسمت له أنا أولاً..

كل ذلك والأستاذ مستسلم لى كالطفل الذى وجد أمه.. أصبح لا يرى الا يعينى.. ولا يسمع الا بأذنى.. وهو سعيد.. انه يرى انتاجه يزداد.. ودخله يزداد.. ويومه يتسع.. وعقله المرتبك يصفو.. ونفسيته الحائرة تستقر..

وبدا الذين يشتغلون فى دار الجريدة يحاربوننى بالإشاعات.. أشاعوا أن بينى وبين الأستاذ علاقة حب، وأنه يتردد كل مساء على الشقة الصغيرة التى أقيم فيها وحدى، والتى تطل على ميدان سليمان باشا.. ولم تكن هذه الاشاعة صحيحة.. أقسم لكم انى فى خلال ثلاث سنوات قضيتها فى وظيفة السكرتيرة لم يكن بينى وبين الأستاذ شئ.. ورغم ذلك فلم يكن عصام مجرد رجل اشتغل عنده.. كان أكثر من ذلك بكثير.. كنت أحس كأنه ابنى.. أكثر من ابنى.. انه شئ أملكه.. أملك عقله.. وأملك وقته.. شئ أصنعه بيدي.. وأنتم لا تدرون كم كنت أبذل فى صنعه.. لقد كنت أذهب الى المكتب فى الساعة الثامنة صباحاً، لأعد له أوراقه، وأعد له برنامج يومه.. ثم أخرج فى الساعة الثانية مساءً لأتناول غدائى، وأنا أفكر فيما ينقصه، وفيما ساعده له فى المساء.. ثم أعود الى المكتب ملهوفة كأنى غبت عنه أياماً.. وكان عصام قد فقد منى.. وأظل حتى التاسعة مساءً ثم أضطر أن أعود الى

بيتي، وأتركه في المكتب ليكتب.. ولا أنام.. بل أظل ساهرة بجانب التليفون، لعله يحتاج لشيء فيطلبني.. وأقضى الوقت أقرأ الصحف الفرنسية والانجليزية وألخصها له لأعرضها عليه في اليوم التالي، حتى أقدر أن عصام قد انتهى من عمله وعاد الى بيته.. فأنام.. لأصحو ملهوفة عليه.. وقد كنت أغار عليه.. هذا صحيح.. ولكنها لم تكن غيرة كغيرة البنات.. نوع آخر من الغيرة.. كنت أغار على كل شيء أملكه.. وأخاف أن يأخذ احد منه شيئاً.. أن يسرقه أحد مني.. أن يهدم جزءاً مما أبنيه.. كنت أغار عليه غيرتي على عمل..

وعصام متزوج كما تعلمون..

وقد رأنتى زوجته لأول مرة بعد أن استلمت عمل بثلاثة أشهر.. ولا شك أنها اطمأنت الى عندما رأنتى.. فأنا لست جميلة.. لست أجمل منها ولا في مستوى جمالها.. ربما كان قوامي أرشق من قوامها، ولكنى لست جميلة الوجه، ولا يبدو عليّ أنى من صنف البنات اللاتى يصطدن الرجال.. كل ما يبدو عليّ أنى فتاة جادة.. فتاة عمل..

ولكن على مر الأيام بدأت الزوجة تحس بنفوذى وسلطاتى داخل دائرة عمل زوجها.. وربما أحسست باستسلام زوجها لى.. حتى أنها أصبحت تأخذ مصروف البيت عن طريقى.. وإذا سألت عن شيء.. عن أى شيء قال لها: «أسألى خديجة».. اذا سألته:

— نقدر نروح سينما الليلة؟

أجاب ببساطة وسلامة نية:

— أما أسأل خديجة.. أشوف ورايا ايه!

وبدأت الزوجة تغار.. وبدأت تحاول أن تبشعرنى دائماً بأنى سكرتيرة.. مجرد سكرتيرة.. ولا يمكن أن أكون أكثر من سكرتيرة.. كانت تتصل بى في التليفون، وتقول لى من طرف أنفها:

— من فضلك وانتي جاية، فوتى على شيكوريل هاتى الفستان بتاعى من عنده!

وكنت ألبى أوامرها.. ولكنها تمادت.. وأحسست أنها تتعمد إهانتى

وتحقيري.. فلم أعد أؤدى لها شيئاً.. انى سكرتيرة زوجها، ولست سكرتيرتها.. واختصاصاتى هى عمل زوجها، لا احضار ثيابها من عند شيكورييل..

وبدأت معركة صامته بينى وبينها..

كانت تأتى الى المكتب.. وتنقل الزهرية من مكانها الى مكان آخر.. وتنقل هذا المقعد.. وهذه المنفضة.. وتلقى أوامر الى السعاة.. و.. وأنا أكاد أجن.. انى لا أتدخل فى شئون بيتها، فلماذا تتدخل فى شئون بيتى.. وهذا المكتب هو بيتى.. بيتى أنا.. ليس لى بيت آخر أنا سيدته.. وقد ضحيت فى سبيل هذا البيت.. بل رفضت أن أتزوج.. وأرفض أن أتزوج.. فى سبيل هذا البيت.

وصبرت على الزوجة!

ثم جاءت يوماً الى المكتب.. وحاولت أن تدخل الى زوجها فقلت لها فى أدب:

— عنده اجتماع..

وكان فعلاً مشغولاً باجتماع هام مع شخصية سياسية كبيرة. ولكنها صرخت فى وجهى كأنها تصفعنى:

— انتى اتجننتى.. ازاي تمنعيني ادخل لجوزى.. انتى فاكرانى موظفة زيك.. انتى زودتيها قوى.. لازم تعرفى حدودك! وسكت!

وفتحت الباب ودخلت..

ومن يومها أصبحت الحرب بينى وبينها سافرة!

من يومها أصرت على أن يطردنى عصام من العمل.. وجمعت كل الاشاعات الكاذبة التى أشيعت عنى وعنه وأشهرتها فى وجهه.. انت بتحبها.. انت بتخونى معاها.. الصرصارة.. الوحشة!

وبدأ عصام يتعذب!

وبدأ عذابه يربك تفكيره.. وروحه.. وعمله.. وعجزت ان أسيطر عليه.. عجزت أن أدير مفتاح الراديو.. كما كنت أديره!

وكننت أعرف أنه يعانى أزمة الخيار بينى وبين زوجته.. إما أن يطردنى.. أو يطلقها.. وكان أضعف من أن يختار.. كان أطيب قلباً من أن يضحي بزوجته التى عاش معها أكثر من عشر سنوات.. وأضعف من أن يستغنى عني، وهو يعلم مدى حاجته إلي!

وكننت أتمنى أن يطلقها.. ما جدواها في حياته.. ما جدوى أى زوجة في حياة فنان مثل عصام.. أنها فقط مظهر.. أنها ثوب يرتديه استكمالاً للشكل.. أنها لا تعينه في عمله، ولا في حياته.. بالعكس أنها عبء عليه.. أنها عذاب يسرى في أعصابه.. وأنا التى يحتاج إليها.. أنا التى تدير مفتاح الراديو ليملاً أذان العالم فناً ومجداً.. أنه يرانى أكثر مما يراها.. وأتعب من أجله أكثر مما تتعب.. هذه المدللة التافهة!

إلى أن كان يوم!

ودخلت الزوجة علق كالزوبعة، وصرخت في وجهي:

— اسمعى، انتى لازم تخرجى من هنا حالا، دلوقت، إذا كان عصام مش قاصر يقول لك انك لازم تنطردى، أدبنى بأقولك.. كفاية.. خسرت سمعته.. وهدمت بيته.. امشى اطلعى برة!

ورفعت رأسى، ونظرت إليها باحتقار، وقلت:

— لو كننت عارفة ان الاستاذ عصام مش عايزنى، ما كننتش استنيت لفاية ما يطردنى.. وأحب أقولك انه محتاج لى أكثر منك.. انتى صحيح مراته.. إنما ما تعرفيش انه أطيب من أنه يخونك! وعادت تصرخ:

— امشى اطلعى برة.. اطلعى برة.. انتى مرفوتة.. مرفوتة!

وتجمع المحررون عند الباب يشاهدون الخناقعة بين الزوجة والسكرتيرة، وقلوبهم ترف بالشماتة!

وخرج عصام من مكتبه، ووقف بين زوجته وسكرتيهته ذاهلاً!

ونظرت إليه بكل عيني!

ولأول مرة أعرف أنى أحبه.. أحبه ضعيفاً كما هو.. ذاهلاً كما هو.. فناناً كما هو.. أحبه أكثر مما تحبه زوجته.. وألف امرأة مثل زوجته.. ولأنى أحبه أكثر منها.. كان يجب أن أضحي به!

تركته !

وعدت الى بيتى أبكى.. أبكى كل ما بنيته.. أبكى الانسان الذى صنعته
بيدى.. وانقضت أيام طويلة.. وأنا وحدى.. أفكر فيه.. وأتبعه بخيالى.. ترى
هل كتب المقال.. هل أعد مسودات الكتاب.. هل حضر الاجتماع.. هل قبض
الشيك.. هل عاد عامل البوفيه يقدم له قهوة مصنوعة من بن مغشوش.. و..
ومضى أكثر من عشرين يوما!

وكنت جالسة فى بيتى وحدى.. والساعة الحادية عشرة مساء، عندما
دق جرس الباب!

وارتدبت «الروب دى شامبر» فوق قميص النوم، وفتحت..
انه عصام!

مذهولا.. ممتععا.. شاربا العينين..

ودخل صامتا دون أن أدعوه الى الدخول، وأخذ يطوف بأرجاء الغرفة فى
خطوات تائهة.. لا يتكلم.. وأنا أنظر اليه، وقلبى يخفق!
ورفع رأسه، وقال كأنه يبكى:

— أنا مش قادر يا خديجة.. مش قادر استغنى عنك.. مش عارف
أشتغل.. مش عارف أعيش.. مش عارف أكتب.. حياتى ارتبكت أكثر من
الأول!

واقتربت منه، ووضعت أطراف أصابعى على كتفه، وقلت وكلماتى
ترتعش:

— أنا لسه معاك.. حافضل طول عمرى معاك..

ونظرت إلّ طويلا.. ثم فجأة جذبنى اليه.. وضمنى الى صدره بقوة..
وأخفى وجهه فى عنقى وهو يقول:
— ماتسيبينيش يا خديجة ما تسيبينيش..



لقد رفضت الزوجة أن أكون سكرتيرة لزوجها..
فأصبحت عشيقة له..

أرجوكم .. لا تلومونى.. ولا تلوموه..
هكذا أرادت .. الزوجة..



القطة

لا ادري، هل تبدو قصتي غريبة مثيرة، ام
انها قصة عادية.. قصة عشرات البنات
غيري؟؟ انها في نظري تبدو قصة عجيبة..
وانظر الى نفسي كأني فريضة بين البنات..
فريضة بما أحمله في صدري من عذاب، وفريضة
بما يدور في رأسي من أفكار..



لقد كان أبى يعمل فراشا في إحدى الشركات.. أو «ساعى» فقد كان يكره
ان يقول عن نفسه انه فراش، بل كان يكره ايضا ان يقال عنه انه «ساعى»..
كان لقبه المفضل، موظف في شركة الغزل والنسيج..
وكانت أمى تعمل خادمة عند شريفة هانم.. كانت أكبر قليلا من مجرد
خادمة.. أو كانت خادمة من نوع خاص..

وكننت أنا واحدة من سبعة اخوة واخوات.. كان فوقى ولدان وبنتان..
وتحتى ولد وبنات.. وكننت أجمل البنات، وأذكاهن.. سمراء، لا اكف عن
اللعب والضحك.. وكننت اذهب مع أمى كثيرا الى بيت شريفة هانم. وكانت
شريفة هانم تدللى كثيرا.. كانت تعطينى الشيكولاتة، وقطع الحلوى،
وأحيانا ثوبا قديما من ثيابها.. ولم يكن لشريفة هانم أولاد.. سوى زوجها
دون ان تنجب، وكانت تعيش في قصرها وحيدة.. تلعب الكوتشينة وتقيم
الحفلات..

ومع الأيام ازداد تعلق شريفة هانم بى.. لقد كنت اسليها.. وأثير فيها
حنانها المكبوت.. فاتفقت مع أبى وأمى على أن تأخذنى!
نعم.. تأخذنى!

وتنازل عنى أبى وأمى بسهولة.. ربما اعتقدا يومها انهما يبيعانى الى
النعيم.. وقد كان قصر شريفة هانم نعيما بالنسبة لبيتنا..
وانتقلت الى القصر الكبير، وأصبحت سلوة شريفة هانم الوحيدة..
تضعنى بجانبها طوال اليوم.. وأنام بجانبها في سريرها طول الليل..
ولا تكف عن تدليلى، ومسح وجهى وشعرى بيديها.. وكانت تتسادينى

دائما.. قطتى.. تعالى يا قطعة.. روحى يا قطعة.. خدى شيكولاتة يا قطعة!
وفرحت بانتقالى الى القصر الكبير.. الى النعيم.. احسست كأنى ملكت
الدنيا.. وكنت انادى شريفة هانم.. ستى.. ولكنها طلبت منى ان اناديهـا..
طنط.. ثم بعد شهر، وبعد ان ازدادت تعلقاً بى طلبت منى أن اناديهـا..
ماما..

وليس معنى هذا انها تبنتنى تبنيـا قانونيـا.. انها لم تتخذ أى إجراء
قانوني.. ولا زالت لا استحق شيئا فى إرثها.. ولا يزال اسمى فى شهادة
الميلاد: زينب عبد الله عبد الفتاح.. بنت عبد الله عبد الفتاح.. ساعى بشركة
الغزل!

وكان شعورى نحو شريفة هانم غامضا فى مبدأ الأمر.. كانت فرحتى
بالنعيم تلهينى عن فهم شعورى نحوها.. ولكنى مع الأيام بدأت أضيق
بتدليلها لى.. وبدأت أنقاسى تتمزق كلما قبلتنى أو ضمتنى.. وبدأت أحس
كلما نمت بجانبها، برغبة فى الفرار.. حتى لو نمت على الرصيف.. ولكنى
لم أكن أستطيع ان أفصح عن شعورى.. كنت أكتمه، وأحس انى أنقع ثمن
النعيم الذى أعيش.. ثم أخيرا عرفت انى لا أحب شريفة هانم.. بل لا أحس
بفضل لها على ولكنى فقط محتاجة اليها.. وهى أيضا محتاجة إلى !..

ثم تنبّهت الى لقب «قطعة» التى تدلّنى به.. انى فعلا قطعة.. وهى تدلّنى
كما تدال قطنها.. وتشترى لى الثياب والحلى.. كأنها تعلق فى رقبة قطنها
شريطا من الحرير.. وجلجلة من الذهب.. وإذا كان يقال عن القطعة إنها
«تعرف المكان ولا تعرف السكان» بمعنى انها لا تحب صاحبها ولكنها
تحب المكان الذى تأكل فيه.. فكذلك أنا.. أنا لا أحب شريفة.. ولكنى أحب
النعيم الذى أقيم فيه!

وأصبحت أكره القطم.. أصبحت أجن وأصرخ كلما رأيت قطعة..
وأنا كنت لم أحب شريفة هانم.. فقد فقدت أيضا حبي لأمى.. لقد كانت
تأتى الى البيت لتخدم فيه، كما كانت دائما.. ووجدت نفسى حائرة.. هل
اعتبرها أمى، أم اعتبرها خادمة.. ولم أكن أستطيع ان اعتبرها أمى..
ولم أكن أستطيع ان اعتبرها مجرد خادمة.. فأصبحت أضيق برؤيتها..
واتشاجر معها كلما التقينا.. حتى اضطرت شريفة هانم أن تمنعها من

التردد على البيت! دون ان تحرمها من أجرها.. ولم تعترض أمي، ما دامت تقبض أجرها.. وأصبحت لا أراها إلا في فترات متباعدة.. والحظات قصيرة.. وأخذت أعيش حياة شريفة هانم.. حياة المجتمع الذي تنتمي إليه شريفة هانم.. وساعدني ذكائي.. وساعدتني شريفة هانم.. التحقت بمدرسة الميردييه. وأجدت الفرنسية والانجليزية وكنت في الخامسة عشرة من عمري أصنع ثيابي عند مدام افلاطون، وأذهب الى الكوافير مرتين في الأسبوع، وتأتي عاملة المانيكير الى لتقليم أظافري.. وكنت أرشق بنات المجتمع.. وأجملهن.. وأخفهن دما.. وأذكاهن.. إنى لم أكن أستطيع شيئاً بغير ذكائي.. ان الرشاقة، والجمال، والنجاح في المجتمع، كان الفضل فيه لذكائي قبل ان يكون لأموال شريفة هانم..

واستقبلني المجتمع مبهوراً..

كنت أدير الرؤوس في كل مكان أدخله.. وربما لاحظت بعض الهمسات التي تدور حولي.. ولكن لا يهم. ما دام معي ذكائي وجمالي..

وأصبحت في السادسة عشرة

وبدأت أبحث عن الرجل الذي أتزوجه.. وكان من حقي ان يكون لي زوج يستطيع ان يكفل لي حياة كالتي أعيشها في القصر الكبير.. لم أكن أستطيع ان أتزوج كما تزوج إخوتي البنات.. مستحيل.. انهن لسن أخوتى.. لقد ابتعدت عنهن كثيراً.

وبدأت أنتقي الشاب الذي أريده.. ولم يكن هذا صعباً فكل أولاد الطبقة الراقية يجرون ورائي.. ويضعون تحت قدمي شبايبهم وثرواتهم.. والأصل العريق!

واخترت واحدا منهم..

انه يحبني.. يحبني جداً.. انه يبكي بالدمع أمامي.. ولكن.. ولكنه لا يستطيع أن يتزوجني.. امه لا تريد.. وأبوه لا يريد وهو لا يستطيع. وقرنته واخترت واحداً ثانياً..

انه يحبني.. يحبني جداً.. انه يبكي بالدمع أمامي.. وقد منحته أكثر قليلاً مما منحت الأول.. حتى أملكه أكثر.. ولكن.. انه لا يستطيع أن يتزوجني.. والثالث.. و..

وتنبهت الى الحقيقة المرة.. ان المجتمع لا يريد أن ينسى أنى ابنة عبدالله عبدالفتاح الفراش، وابنة نعيمة الخادمة.. المجتمع لا يريد أن يعترف بأنى ابنة شريفة هانم.. المجتمع كله كشريفة هانم لا يعتبرنى أكثر من قطعة.. قطعة شريفة هانم.. قطعة تنتقل بين الموائد، وتموء، ويربت الناس على ظهرها.. وتملكنى احساس جارف بالعناد..

يجب ان اتزوج.. واتزوج واحدا من أبناء هذه الطبقة.. ولكن.. الشاب الرابع أيضا طار.. والخامس.. وكلهم يحبوننى.. ويتذللون الى.. ويهبوننى ما أريد من أموالهم ويصحبوننى فى سياراتهم.. ولكنهم لا يتزوجوننى.. وشريفة هانم تعرف مأساتى.. لقد شكوت اليها فى لحظة ضعف.. وكل ما فعلته ان هونت على.. انتى لسة صغيرة يا قطعة مستعجلة على الجواز ليه.. يا قطعة..

ربما كانت لا تريد ان تزوجنى حتى أظل بجانبها.. قطتها..

وتملكنى حقد عنيف ..

حقد على المجتمع كله.

وعندما حقدت انصب حقدى على شريفة هانم..

أصبحت أعاملها بقسوة.. وأتلذذ بجرح احساسها.. كنت أنشب أظافرى فى كبرياتها وفى شيخوختها وأمزقها.. وهى تشور حيناً، ثم تهدأ.. وتسكت، وتحتملنى .. لا أدرى لماذا ؟

وتقدم إلى ضابط شاب ليخطبنى .. إنه من أصدقاء زوج أختى ، ومرتبته أربعة وعشرون جنيتها .. وأحسست أنى أهنت .. كأن الدنيا مدت يدها وصفعتنى.. انى لا زلت ابنة أبى الفراش وأمى الخادمة.. ولا زلت أختا لآخواتى.. ولا استحق إلا زواجا مرتبه أربعة وعشرون جنيتها.. ورفضته..

ورفضته وأنا أصرخ فى وجه أمى وأختى..

لأنى لن أتزوج إلا واحدا من طبقتى.. طبقة القصر الكبير.. ولكن شبان هذه الطبقة لا يتزوجوننى.. أنهم فقط يشتهوننى.. وازددت حقا عليهم.. وأصبح الحقد انتقاما.. أصبحت أدمر كل من يقترب منى.. استطعت أن أتسبب فى طلاق اثنين.. وأن أفسخ خطوبة ثلاثة.. وأن أمتص ثروة واحد

منهم الى أن ارسله أبوه الى أوروبا ليعده عني.. وكل تلك وأنا ضنينة
بتفسي عليهم.. لم يستطع شاب أن يلمس جسدي.. لا إيماناً مني
بالفضيلة.. ولكني كنت أقتلهم بالحرمان، وأعذبهم بشهوتهم!
ومرضت شريفة هانم..

أصببت بالشلل، وأصبحت لا تقوى على الحركة.. لا شيء يتحرك فيها
إلا عينيها ولسانها.. وجلست بجانبها أبطق فيها.. لم أشعر بالشفقة
عليها.. لم يتحرك قلبي لوعة عليها.. إنما كنت أفكر.. إنها ستموت،
وستتركني بلا شيء.. اني لن أرثها.. لن أرث شيئاً من هذا النعيم.. وفجأة..
ويكل جراً.. قمت وفتحت بوابها وأخذت مصاغها، وكل ما وجبته من
نقود.. فطلت تلك أمامها.. وهي تنتظر إلى في فزع، ولا تستطيع أن تتحرك..
وقالت ولسانها الثقيل لا يكاد يحمل كلماتها :
— إيه بس يا بنتي..

وقالت وأنا أمد يدي وأجمع المجوهرات في جشم، كالقطعة التي تسرق
قطعة اللحم من طبق صاحبها:
— أنا مش بنتك.. لو كنت بنتك ما كنتش عملت كده.. أظن فاكركه أنك
تموتى وتسيبيني أشحت.

وقالت والفرع يملأ وجهها، ولسانها يزداد ثقلاً:
— أنا .. أنا !

ثم سككت!

شل لسانها.. شل نصفها الآخر..

وأخذت المجوهرات والنقود وأخفيها عند أمي.. وعدت إلى القصر.. أدخل
إلى شريفة هانم، فتتظر إلى في فزع، ويتحرك لسانها بهدير غير مفهوم،
وأنظر إليها في قسوة كأنى أخنقها بعيني.. ثم أتركها للممرضة، ولا أريها
وجهي حتى الصباح التالي.

وماتت..

ربما عجلت بموتها فعلاً..

وفتحوا وصيتها..

لقد أوصت لي بالقصر.. وبمجوهراتها.. وبأموالها في البنك ..

أوصت لي بثلاث ثروتها..
وأفقت..
أفقت من حقدى..
لقد كانت تحببني.. إنى لم أكن مجرد قطعة.. إن الناس لا يوصون للقطط
بثلاث ثرواتهم.. ولم أكن أدرى!
وبكيت، لعلها المرة الأولى التى أبكى فيها..
وذاع خبر الوصية.. وتقدم إلى ثلاثة شبان من شبان المجتمع الراقى
ليتزوجونى.. ورفضتهم.. إنى أعرف لماذا يريدون الآن الزواج.. إنى لا زلت
في نظرهم ابنة نعيمة الخادمة.. لا ابنة شريفة هانم.. ولكنى ثرية!
وبعت القصر الكبير.. واستأجرت بيتا آخر.. كبيرا أيضا.. عشت فيه مع
أمى وأبى.. وأختى الصغرى وزوجها..
ورفضت الزواج..
بلغت الثلاثين من عمرى، ولم أتزوج!
ثم أخيرا.. تزوجت.. أتدرون من؟ الضابط الذى تقدم لخطبتى وأنا فى
التاسعة عشرة.. إن مرتبه الآن خمسة وخمسون جنيها!!



سوق الفتافيت



أنا لاجيء فلسطيني..
وعندما ترن في أذنك كلمة «لاجيء» تثور
في نفسك معاني الجهاد، والكرامة المجروحة،
والنضال في سبيل استرداد الوطن العربي..
ولكنك تنسى معساني الجوع، والفقر،
والتشرد.. ربما لأنك، أنت والجالسين خلف
مكاتبهم، لم تعرفوا الجوع، ولا الفقر،
ولا التشرد.. فأنتم معذورون!

وقد وصلت إلى معسكر اللاجئين وأنا في الثانية من عمري.. أنا وإخوتي
التسعة الصغار.. ملتقين حول أمنا الباكية.. تبكي زوجا قتل، وعالما خرب
وضاع..

وعشت سنوات عمري، مع آلاف غربي من اللاجئين.. عشت في خيمة
صغيرة ممزقة، تضمنا جميعا.. وتتدفأ في الشتاء بأجساد بعضنا البعض..
ونقضي الأيام لا نفعل شيئا، إلا أن نضيع في الفراغ.. وننتظر المشرفين على
اغاثتنا.. وزوارا من مختلف البلدان يأتون إلينا وينظرون.. كأنهم ينظرون
إلى نوع غريب من الحيوانات داخل أقفاص.. وترتفع في عيونهم الحسرة..
ويمصصون شفاههم.. ويقولون كلمة تبعث فينا الأمل.. ثم يذهبون..
وينسون!

وكانوا يحسنون علينا بأربع بطاطين.. كل ثلاثة منا بطانية.. ولكل
واحد منا كمية من الدقيق والسكر والفل، تساوي ١٥٠٠ سعر حراري!
هل تعرف ما هو السعر الحراري؟

لا.. إنك لا تعرف.. لأنك عندما تأكل لا يهمك أن تعرف كم سعر حراري
تأكله.. ولكننا نعلم.. ونعلم أن الشخص العادي يحتاج في المتوسط إلى
٢٠٠٠ سعر حراري، كحد أدنى للحياة!!

وكنا نأخذ دقيق القمح الذي يصرف لنا.. ونستبدله عند التاجر بدقيق

أذرة.. حتى يكفيننا.. وعندنا تجار تخصصوا في هذه التجارة.. وتعيش
تجارتهم على جوعنا..

ولكن دقيق الأذرة أيضا لم يكن يكفيننا.. فكننا نستبدل الدقيق..
بالتفافيت..

إنك لا تعرف ما هي التفافيت ؟

إنها قطعة الخبز الصغيرة التي تتساقط من على مساندتك، ويلقى بها
خادمك في صفيحة الزبالة.

وعندنا داخل المعسكر، سوق كامل اسمه «سوق التفافيت»..
لا تتدهش.. إن اسمه فعلا، «سوق التفافيت».. تعرض فيه بقايا الأرزفة..
أنصاف الرغيف، وأرباع الرغيف، ولقم من الرغيف.. لمن يشتري ولمن يبيع..
واللاجئون لا يتعاملون بالنقد.. ليس عندنا نقود.. من أين تأتي بها،
ونحن نعيش بلا عمل، عائلة على كرم المحسنين.. فكننا عندما احتاج لقلم
اكتب به في المدرسة، تعطيني أمي ربع رغيف، اذهب به إلى سوق التفافيت،
واستبدله هناك بقلم رصاص..

وقد ذهبت إلى مدرسة المعسكر.. كل الأولاد عندنا يذهبون إلى المدرسة،
لا إجبارا، ولا لأن التعليم عندنا إلزامي، ولكن لأن ليس هناك شيء آخر
نفعله سوى أن نذهب إلى المدرسة.. ولأن العلم غذاء مجاني.. وقد تعودنا أن
نأخذ كل شيء مجانا.. صدقة لله.. وأخيرا.. لأن العلم كان هو السلاح
الوحيد الذي يسمح لنا بحمله!!

وكانت مدرستنا من نوع خاص يليق بنا.. مدرسة في العراء.. نجلس
فيها على قطع من الحجارة.. ويجلس المدرس أمامنا على قطعة حجارة
أخرى.. ولم تكن لنا سبورة يكتب عليها المدرس بالطباشير.. بل كان
المدرس يكتب على الأرض.. على مساحة من أسفل الشارع!!
هذه كانت مدرستنا.

وقد بقيت فيها حتى نلت الشهادة التوجيهية..

وكثير من شباب اللاجئين عندما ينالون شهادة التوجيهية، ينتظرون
موسم الحج.. ويجمع لهم أهاليهم بعض النقود، وقد تكون لدى أمه أو

أخته، قطعة حلى تبيعها من أجله.. ثم يسافر إلى المملكة السعودية بحجة أداء فريضة الحج.. وهو يضطر حتى تبدو حجته صادقة أن يقضى عاماً على الأقل وهو يدعى التدين، ويصلي الفروض الخمسة ويصوم رمضان.. فإذا استطاع بعد ذلك أن يسافر إلى السعودية.. كان أول ما يفعله أن يطوف على أبواب الرزق باحثاً عن عمل.. إن الله لا يرضى لعبده أن يطوف حول الكعبة وهو جاثع مشرد، مجهول المصير.. إنما الطواف الحلال.. الطواف الذى شرعه الله لعبيده.. هو الطواف على أبواب الرزق.. فإذا وجد السلاجىء منّا عملاً.. أى عمل.. هداً، واستراح، واستقر.. وأرسل من كسبه إلى أهله وبني قومه الراقدين في معسكر اللاجئين، يرد جميلهم عليه..

وقد كنت في انتظار موسم الحج لأهاجر إلى السعودية.. أو أى وطن عربى آخر أستطيع أن أصل إليه.. ولكن الله أغنانى، وفتح لى باب الرزق فى داخل معسكر اللاجئين.. بين قومى..

عينت مدرسا، بعد أن كبرت المدرسة وأصبح لها بناء.. وأصبح مرتبى سبعة عشر جنيهاً فى الشهر.. إنها أول مرة ألمس فيها بيدي نقوداً أملكها.. كانت كل النقود أراها من بعيد.. لا ألمسها.. وليس لى نصيب فيها.. وفرحت.

وزغردت أسمى..

وهلل إخوتى التسعة..

ولكن ما لبثت فرحتى أن اختنقت.. ضاعت كما ضاع وطنى.. فقد علمت أن اللوائح.. لسوائح المحسنين.. تنص على أن تحرم العائلة من الاعانة، إذا كان عائلاً يكسب خمسة عشر جنيهاً فى الشهر..

وأنا كبير عائلتى!

ومرتبى سبعة عشر جنيهاً فى الشهر!

وضاعت الاعانة. ضاعت الـ ١٥٠٠ سعر حرارى التى كان يعيش عليها كل منّا!

ماذا أفعل؟

إن سبعة عشر جنيها في الشهر، لا تكفى لحياة أحد عشر شخصا.. أمى وأنا وإخوتى التسعة.. حتى ولو كنا نعيش في معسكر اللاجئين.
إننا سنموت من الجوع، والبرد!
وفكرت..

ولم يكن هناك إلا حل واحد، وهو أن ادعى أنى تخليت عن عائلتى،
وكونت عائلة أخرى.. وأترك إخوتى وأمى يمرحون في كرم المحسنين.
ومعنى هذا، أن أتزوج..

ولكنى لا أريد الزواج!
أريد أن أبقى مع أمى وإخوتى أرعاهم، وأعطيهم كل قرش من مرتبى
الصغير..

ولم يكن هناك طريق آخر، فقررت أن أتزوج.. زواجا صوريا.. مجرد
إجراء شكلى.. لارضاء اللوائح!

وكانت في المعسكر امرأة عجوز مجنونة.. تدور طول النهار بين الخيام
تهذى بكلام غير مفهوم.. فتقدمت إليها أطلب يدها.. أى والله.. هذا ما
فعلته.. وإذا بالمرأة المجنونة تغيق من جنونها بغتة.. و.. وتطالبنى بالمهر..
وإذا بأخ يظهر لها.. ويدخل معى في مفاوضات لا تنتهى.. وكان أخاً وأعياء..
لم يفاوضنى على أساس أنى أريد أن أتزوج بأخته المجنونة العجوز.. بل
فاوضنى وهو يعلم حيلتى.. ويعلم قيمة الاعانة التى ستحرم منها عائلتى..
وحسبت الحسبة، وقبلت أن أدفع مهرا..

دفعت عشرة جنيهات.. على قسطين..

وتزوجت..

وردت إلى إخوتى وأمى الـ ١٥٠٠ سعر حرارى.. وتركت زوجتى تهيم
بين الخيام، وتهذى بكلام غير مفهوم.. لم تكن زوجتى، بمعنى الزواج،
ولو لدقيقة واحدة.

واطمانت حياتى..

وأصبحت من ثروة المعسكر..

ثم فجأة.. وقبل أن تنتقضى ثلاثة أشهر.. ماتت الجنونة.. ماتت زوجتى.. وضاع المهر الذى دفعته.. وتكلفت مصاريف الدفن.. ثم.. صدر قرار الحسين بحرمان عائلتى من الاعانة..
أندرى؟
إننى أذهب كل غروب إلى قبر زوجتى..
وأبكى..



شفتاه



هل تريد أن تعرف قصتي معه؟؟؟
لقد رأيته أول مرة على شاطئ البحر
بالاسكندرية.. كنت في السابعة عشرة من
عمرى، وكان في الخامسة والثلاثين من
عمره.. كبيرا، قويا، طويلا، لفحته الشمس
فبدا جسده كأنه مصنوع من النحاس..
وزحفت فوقه بعيني حتى التقيت بوجهه.. رزينا.. عيناه حادتان..
وشفتاه مقوستان كأنهما قوس مشدود ليطلق ابتسامة.. وتعلقت
عيناي بهاتين الشفتين!
وفي اليوم التالي رأيته أيضا.. وقضيت ساعات أمسح فوقه بعيني ثم
استقر بهما فوق شفتيه!
وفي اليوم الثالث رأيته يحدث فتاة.. وشعرت بالغيرة.. وكنت أعلم أن
ليس من حقي أن أغار عليه.. إنه لا يعرفنى.. إنه حتى لم يرنى.. لم يلتفت
إلى رغم أن ليس بينى وبينه سوى خطوات..
وقمت أسير أمامه لعل أشغله عن الفتاة التى يحدثها.. ولكنه لم يشغل
عنها.. ولم يلتفت إلى.. وعدت إلى جلستى أنظر إلى شفتيه وهما تتحدثان إلى
فتاة أخرى!!
ومرت الأيام.. وليس لى منه نصيب إلا النظر.. وشفتاه تطارداننى في
نهارى وليلى، في صحوى ونومى!
وتجرات..
أصبحت أتعمد أن أمر أمامه.. وتصيبنى رعشة فيخيل إلى أن جسدى
كله يتأرجح فوق ركبتى وأنا أمشى.. فأخجل من نفسى..
وتجرات أكثر..
أصبحت ابتسم له.. ابتسامة صغيرة خجولة، هى كل ما استطاعت
جراتى أن تعيننى عليه..
ولكنه لم يلتفت إلى..

لم يرئى..
إنه أحيانا مشغول في حديث مع أصدقائه.. وأحيانا يلعب الراكيت..
وأحيانا يلعب الطاولة.. وأحيانا يحدث هذه الفتاة الأخرى..
وعيناي متعلقتان بشفتيه..

ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئا أكثر من ذلك.. إننى خجولة وأنا
محافضة.. وكنت أعلم أن البنات لهن طرق كثيرة في الوصول إلى الشبان..
ولكننى لم أكن أستطيع أن ألجأ إلى هذه الطرق.. إنها فوق طاقتى.. بل إننى
لم أستطع حتى أن أحدث صديقتى عن اعجابى به، لعلها تعيننى على
الوصول إليه..

إننى فقط أنظر إليه من بعيد، وأمر أمامه أحيانا لعله يلتفت إلى
ويساعدنى.. ولكن.. لا شيء.. لا شيء يحدث أكثر من النظر إليه.. والتعلق
بشفتيه!

وبدا شعور غريب ينتابنى..
إننى أريد أن أقبل هاتين الشفتين..
أريد أن أقبلهما..

وخجلت من هذا الشعور.. أحسست بنفسى كأنى أصبحت فتاة
خاطئة.. ولكن الرغبة تزداد تملكا منى.. فأدفن شفتى بين طيات الوسادة..
وأقبله..

وذهب في الصباح إلى الشاطئ وبحث عنه بعينى فلم أجده.. وانتظرت
فلم يحضر..

وأحسست كأنه هجرنى..
أحسست كأن الشاطئ كله فراغ ممل..
ولم يحضر في اليوم التالى..
لقد عاد إلى القاهرة..

تركنى وأنا لا أعرف إلا اسمه الأول الذى سمعت اصدقاءه ينادونه به..
عادل..

انقضى الصيف وأنا ساهمة.. وشفتاه مرسومتان فوق وسادتى.. ثم

رجعت إلى القاهرة.. وفرحت برجوعي، كأنى سألقاه ينتظرنى على المحطة.
كأنى على موعد معه..

وأصبحت أسير في شوارع القاهرة وأنا اتلفت إلى كل سيارة تمر لعل
أجده فيها.. وأنظر حولى كأن عيني متفتحان عليه.. على شفتيه.. وأصبحت
افتح دفتر التليفون وأراجع كل الأسماء التى تبدأ باسم عادل.. ثم اختار
واحدا منهم.. لعله هو.. وأهم أن اتصل به.. ثم أعدل.. رباط من العقل
يشدنى..

وشفتاه.. إنى لا أستطيع أن اتخلص من شفتيه..

و.. رأيته.. لمحته في شارع سليمان باشا يقود سيارته الصغيرة..
ووقفت مشدوهة، وقلبي يخفق.. يخفق بشدة.. يكاد يفر من بين ضلوعي..
وعدت إلى البيت.. ساهمة واجمة.. سعيدة.. كأنى عدت من لقاء غرام..
ودفنت شفتى في وسادتى..

ثم عاد الصيف..

وعدت إلى الشاطئ أنتظره..

انه لم يأت بعد..

ومضت أيام طويلة ولم يأت.. ثم جاء.. وفرحت.. خفق قلبي.. وغمرتني
سعادة ونشوة.. وأخذت امسح فوق جسده بعيني، وانحفت بهما حتى
أصل إلى شفتيه.. لا تزال الابتسامة بينهما.. ولكنه يبدو أكبر من العام
الماضى.. شعرات بيض خفيفة في فؤديه، وخطوط فوق جبينه.. ولكنى
لا زلت لا أستطيع أن أرفع عيني عنه..

وقمت أسير أمامه.. ولكنه مشغول.. يحادث أصدقائه.. أو يلعب
الراكت.. أو الطاولة.. أف.. لماذا لا ينظر إلى.. إنى جميلة.. إنى ساعجه..
يجب أن ينظر، ويساعدنى.. يساعدنى في الوصول إليه..
ولكنه مشغول..

مشغول عنى..

وبكيت.. وأخفيت دموعى.. وعدت أنتظر اليه..

وبقى يوم آخر على شاطئ البحر، ثم لختفى.. تركنى.. وشفتاه

لا تفارقسان وسادتي.. ولكنه عاد.. عاد يوم الخميس.. وعرفت أنه قرر ألا يقضى على الشاطئ أكثر من يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع.. وأصبحت انتظر كل يوم خميس كأتى على موعد معه.. كنت أذهب إلى الحلاق في الصباح، وأرتدى أحب فساتينى، وأذهب إلى الشاطئ.. إليه وأقبل شفتيه.. قبلات كثيرة.. أقبلهما بعينى.. وأهمس.. وحشنتى.. وحشنتى موت.. ولا شىء أكثر..

وانتهى الصيف، وكل ما أخذته منه هو اسمه الكامل.. عادل رؤوف.. موظف بالسلك السياسى..

وعدت إلى القاهرة، وأمل كبير يضح في صدرى.. إنى على الأقل أستطيع أن أحدثه في التليفون..

ومضى أكثر من شهر وأنا أحاول أن أستجمع شجاعتي لأحدثه في التليفون..

صدقنى.. إنى لست كبقية البنات..

ثم أخيرا حدثته..

وسمعت صوته..

لا بد أن هذا هو صوته.. إن قلبى لا يخطئ

وقلت وصوتى يرتعش:

— أنا واحدة..

وقال وهو يضحك ضحكة كسولة:

— صحيح!!

وضحكت معه.. خيل إلى أنى بين ذراعيه.. وضحك..

ووجدت نفسى أحادثه.. لم أكن أظن أنى أستطيع أن أقول كل هذا

الكلام.. رغم أنه لا يعرفنى!

وقلت له فى حياء:

— أقدر ألكمك فى التليفون تانى..

قال وأنا أرى شفتيه يطلقان ابتسامتهما:

— تقدرى.. بس لازم تكلمينى فى لندن..

وشهقت:

— أنت مسافر؟

قال في هدوء:

— الطائرة حاتقوم بعد ساعتين..

قلت في لهفة:

— وراجع إمتى..

قال وهو يضحك ضحكة صغيرة كأنه يسخر من القدر:

— بعد خمس سنين..

ووقعت سماعة التليفون من يدي كأنما أغمى عليها..

هل نسيت..

لا..

إنه حبي الأول والوحيد، فكيف أنساه.. وشفتاه مرتسمتان فوق
وسادتي وصوته يملأ أذني..

وتزوجت وأنا في التاسعة عشرة..

وذهبت لزوجي، وخيالي مع حبيبي حتى في حفلة زفائي وأنا جالسة في
الكوشة، والعوالم يقرعن الدفوف من حولي، كنت أرى حبيبي في خيالي..
وأرى شفتيه.. وأغمض عيني لأقنع نفسي أنني أزف إليه..

وعندما قبلني زوجي لأول مرة أغمضت عيني لأتخيل أنها قبلة حبيبي..
لا إنها ليست قبلة حبيبي.. وأدفن رأسي في الوسادة أبعد عن شفتيه.. ثم
.. إنني لا أطيق أن يقبلني زوجي إلا إذا أطفأ النور..

وأصبحت أعد الشهور والسنين.. مر عام.. والثاني.. والثالث..
والرابع.. والخامس.. لا بد أنه عاد.. لقد قال إنه سيعود بعد خمس سنوات..
هل اتصل به في التليفون.

لا.. لا.. مستحيل.. إنني امرأة متزوجة.. ويكفيني أنني أثمت في حق
زوجي بخيالي، ولن آثم في حقه أكثر..

وصدقني.. إنني من هذا النوع من النساء.. النوع الذي يطلق خياله،
وتقيده الحقيقة..

وأصبحت أسير في شوارع القاهرة وأنا أنظر إلى السيارات لعل اصطدم
به.. ثم أسافر الى الاسكندرية وأجلس في نفس المكان من الشاطئ.. لعله
يأتى..

ولكنه لم يأت..

وهو في خيالى.. وشفتاه فوق وسادتى.. وصوته يملأ أذنى..
ومرت إحدى عشرة سنة..

ورأيته..

رأيته في السينما.. كان يجلس في بنوار.. كبيرا، قويا، طويلا، وشفتاه
مقوستان.. كأنهما قوس مشدود ليطلق ابتسامة..
إنه حبيبى..

وحبيبى الآن في السادسة والأربعين من عمره.. شعره أبيض.. ولكنه لا
يزال حبيبى..

وتعلقت عيناى بشفتيه، وانطلقت منى ابتسامة تسعى اليه.. وهمست..
الحمد لله على السلامة..

ثم وجدت نفسى أميل على زوجى، وأتعلق في ذراعه، كأنى احتفى به من
خيالى..

ثم.. عدت أزحف اليه بعينى..

ان معه فى البنوار سيدة.. وصديقا.. هل هذه السيدة زوجته أم زوجة
صديقه..

واعتبرتها زوجته.. لا أدري لماذا.. واحسست بالغيرة.. غيرة مرة
قاسية.. كأننى خاننى بزواجه.. كأنه خدعنى.. كأنه..
إنى مجنونة..

ولكنى أعيش فى هذا الجنون.. وهو جنون لا يبدو على وجهى ولا على
تصرفاتى.. ولكنى لا شك مجنونة.. مجنونة ان أحب هذا الحب.

ولكنى لا أستطيع ان اتخلص من جنونى..

لا أريد أن اتخلص من جنونى..

لا أريد أن اتخلص منه..

إننى أعيش به..
ومضت خمسة أعوام..
ومات زوجى؟
وبكيت عليه.. بكيت عليه كثيرا.. ولكن خيالى كان لا يتخلى عني أثناء
بكائى.. إننى الآن حرة.. إننى أستطيع أن اتصل بحبيبى.. وكان خيالى هنا
يراودنى.. وأنا فى ليالى المأتم، فأخجل من نفسى.. واشتد فى بكائى.. كأننى
أستسمح زوجى.. وانقضت أيام البكاء..
ومضت شهور طويلة وأنا أروح وأغدو أمام التليفون.. ثم تجرأت
ورفعت السماعة.. وطلبت رقم حبيبى..
— البية موجود؟
ورد الخادم كأنه يستنكر السؤال:
— البية فى باريس..
وشهقت..
ثم ترددت وأنا أسأل فى خجل:
— والهانم..
وقال الخادم وهو أشد عجباً:
— ما فيش هانم هنا.. البية مالوش هانم!
وفرحت..
أحسست أنه لا يزال مخلصاً لى..
وعشت مخصصة له.. رفضت أن أتزوج.
ومر عامان.. عامان ليس لى فيهما إلا خيالى.. وشفته فوق وسادتى،
وصوته يملأ أذنى، وشعره الأبيض يطوف حول كأجنحة الملائكة..
وكننت فى زيارة إحدى صديقاتى فى مستشفى الدكتور الكاتب..
وسمعت من الحاضرات أن عادل رؤوف يقيم فى الغرفة المجاورة وأنه
أجرى عملية جراحية..
ولا أدري ماذا حدث لى..
قمت فجأة، واتجهت إلى غرفة عادل ودخلت إليه..

كان وحده.. راقدا في سرير.. مغمض العينين.. ولم يحس بدخولي..
وقفت بجانب فراشة مشدوهة أنظر إليه كأنى أشرب من وجهه.. ثم تعلقت
عيناى بشفتيه.. ثم فجأة.. انحنيت وألقيت شفتى فوق شفتيه.. وقبلته..
بعد هذا العمر الطويل..
ولا أريد أن أرفع شفتى عن شفتيه..
وفتح عينيه في هدوء وإعياء، ونظر إلى فى تساؤل مريح، وشفتاه تطلقان
على ابتسامته الحلوة..
وامتلات بالخجل، وأرخيت عيني عنه وقلت هامسة، فى سداجة :
— أنا فائزة ؟!
ولم يردد ..
ووقفت مرتبكة.. ثم استدرت لأنصرف.. ولكنه أمسك بيدي، وشدنى
إليه ، وقال :
— أنا حاسس إننا نعرف بعض..
ثم اتسعت عيناها، وشب بقامته فى فراشه، وقال فى فرح :
— مؤكدا إننا نعرف بعض..
وسقطت جالسة على حافة فراشه.. وأنا اتنهد .. وقلبي يخفق .. يدق..
يكاد يفر من بين ضلوعى..
لقد وصلت إليه..
ورويت له قصتى فى حديث لم ينته .. وإن ينتهى..
لقد تزوجنا..
ولعلك الآن لا تلومنى لأنى تزوجت رجلا عجوزا..



العفارييت



أنا دكتور في الذرة، وعضو في المجلس
الأعلى للعلوم، وأستاذ في الجامعة.. وأحمل
لقب : عالم .. وأنا واحد من اثنين في الشرق
الأوسط، تعترف المعاهد العلمية في أمريكا
وروسيا بالبحوث التي يضعها..

ورغم ذلك فهناك سؤال بسيط يتردد على
لسان كل طفل، ولا يستطيع أن أجده جوابا في خزانة العلم والمعرفة التي
أحملها في رأسي.

السؤال هو: هل توجد عقاريت ؟

وقد حاولت كثيرا أن أجيب على هذا السؤال.. قضيت عمري وأنا أحاول،
الاجابة عليه. ودرست علوم الفلك، وعلوم الروح، وعلوم الميتافيزيكا وما
وراء الطبيعية، لعل أستطيع أن أجيب على السؤال المحير، بل ربما كان
الدافع الأول لتخصصي في علوم الذرة هو الاجابة على هذا السؤال..

ورغم ذلك فإنني لم أعثر على الجواب ..

وكل من يسألني : هل توجد عقاريت ؟ لا أرد عليه، ولا أناقش، لأنني
أخشى أن يكشف النقاش عن حيرتي ، فأكتفي بأن أهن كتفي، وأقول بلا
مبالاة : بلاش كلام فاضى.. عقاريت إيه.. ما تسأل في حاجة مهمة يا أخى..
وهذا الكلام الفاضى، هو المشكلة التي صاحبتني طول حياتي..
مشكلة بدأت عندما زرت قريتنا لآخر مرة ، وأنا صبي في الثامنة من
عمري..

إنها قرية صغيرة، اسمها « كفر ممونة » ناحية شبرا اليمى، مركز
زفتى.. وكان جد والدى هو آخر جيل في العائلة أقام في القرية.. ثم أرسل
ابنه — أى جدى — ليتعلم في الأزهر، فأقام في القاهرة وتزوج فيها.. ولكن
صلته بالقرية كانت لا تزال قائمة، فهو يزور أهلها كل شهر تقريبا، وأهلها
يفدون إلى بيتنا في القاهرة ويقيمون فيه ريثما يتمون الطواف على أضرحة
أولياء الله.. ثم في عهد والسى بدأت الخيوط التي تصلنا بالقرية تبلى

وتتمزق.. ولكننا كنا لا نزال نذكرها في أحاديثنا.. وكانت تأتينا منها صفائح
السمن، والبيض، والفطير المشلتت، والبُنات اللاتى يخدمن فى البيت.. وفى
عهدى أنا.. عندما كبرت وأصبحت رجلا.. انقطعت صلتنا بالقرية تماما،
ولم يعد بينى وبينها إلا إيجار ثلاثة أقدنة ونصف، هى كل ما نملكه من
أرضها، ويأتى الشيخ عبدالصمد ليسلمنى قيمة الإيجار مرتين فى العام،
وغالبا لا أجد من وقتى متسعا لمقابلته، فيقابلنى سكرتيرى نيابة عنى !
ورغم أن آخر مرة زرت فيها قريتنا ، كنت فى الثامنة من عمرى - أى منذ
ثلاثين عاما - فإننى لا زلت أذكر هذه الزيارة.. ولا زلت كلما تذكرت قريتنا،
أحس بشيء يشد قلبى كأن عروقى كلما تمتد إلى هناك، وتنبت من هناك..
وأحس فى الوقت نفسه بحزن عميق وحسرة كأنى تذكرت والدتى التى
ماتت، وتركتنى وحيدا.. ضائعا..

وكما تذكرت قريتنا تذكرت العفاريث..

لقد ذهبت إلى هناك مع ابن عمتى الذى يكبرنى بعشر سنوات.. وكنت
صبيا منطويا ضعيفا يجرعوننى كل صباح ملعقة كبيرة من زيت السمك..
وكان ابن عمتى قويا نشيطا، وكان رئيس فرقة الكشافة فى مدرسة
قواد الأول الثانوية، وكان فى حزامه دائما خنجر صغير..

وكنت معجبا بابن عمتى.. كنت اعتبره بطلا، وأسير دائما وراءه،
وأحاول أن أقلده.. وكنت أنظر إلى رداء فريق الكشافة الذى يرتديه،
والمنديل الأخضر الذى يلفه حول عنقه، والصفارة التى يضعها فى جيبه
ويلف حولها الأبيض المجدول حول كتفه، والشراريب الحمراء التى تتدلى
من أعلى جوربه.. كنت أنظر إليه كما أنظر الآن إلى القنبلة الذرية.. كنت
أعتقد أن ابن عمتى يستطيع بهذا الخنجر أن يقتل عشرات اللصوص، وأن
يذبح الأسود، وأن يطرد الانجليز من مصر..

وكنا - فى القرية - نجتمع كل مساء فى قناء الدار.. سيدات العائلة
والبنات والأطفال والشبان.. ونتحدث.. والحديث دائما ينتهى الى ذكر
العفاريث.. الجنية الحسناء التى تظهر فوق مياه النيل فى الليالى المقمرة،
وتأخذ فى تسريح شعرها، وتغنى بصوت لا تستطيع أننى رجل أن تقاومه،

حتى إذا نسي الرجل نفسه وحاول أن يقترب منها، شدته معها إلى قاع النيل.. وتزوجته..

ولكن معظم الحديث كان يدور حول عفريت معين يقيم في القرية ويتخذ محله المختار بجوار المقابر، ولا يزاول نشاطه إلا في الليل.. فإذا ما مر به طفل حملته من ساقيه وفسخه إلى نصفين.. وإذا مر به رجل ركب فوق أكتافه وأمره أن يظل يجرى به إلى نهاية الليل. وكانت أم إبراهيم كبيرة عجائز العائلة تروي قصصا عجيبة عن هذا العفريت.. وتقسم أنه ركب مرة فوق كتفى الشيخ عوضين.. وأنه قتل ابن بهية السدسوقي منذ خمس سنوات.. وإن حميده العلاف رأى العفريت في الأسبوع الماضي عندما كان عائدا من شبرا اليمن، وأنه ظل يجرى، ويقرأ آية الكرسي، والعفريت يجرى وراءه، إلى أن وصل إلى القرية ودخل البيت وأغلق الباب عليه.. ولولا آية الكرسي لاستطاع العفريت أن يلحق به ويركب فوق أكتافه.. وتقسم أم إبراهيم أن شيخ الخفر سليمان قدم منذ ثلاثين عاما طلبا إلى المأمور لاعفائه وإعفاء جميع الخفر من حراسة المنطقة التي تقع حول المقابر، لأن العفريت كان يقضى الليل متنقلا فوق أكتافهم.. وإن المأمور رفض أيامها طلب سليمان، وعزله من شياخة الخفر.. وعين محمد السنوسي بدلا عنه، ولكن محمد السنوسي ما لبث أن استقال بعد أن ركب العفريت.. فما كان من المأمور إلا أن أرسل قوة من عساكر المديرية على رأسها ضابط.. فإذا بالعفريت يركب الضابط ويظل يجرى به حتى آخر الليل.. وفر العساكر.. وحملوا الضابط في الصباح إلى مستشفى المجانين. ومن يومها تقرر أن تترك منطقة المقابر بلا حراسة..

وكننت استمع إلى هذا الكلام وارتعد، وانكمش في نفسي حتى أحس أنني لن أستطيع أن أقرد بعدها أطرافى.. كنت أخاف.. ويلانمنى الخوف طول الليل.. فانزل من سريري الذى أنام فيه أنا وطفلين من أبناء العائلة، وأجرى لأنام بجوار ابن عمتى.. فقد كنت أعلم أنه يحتفظ بخنجره تحت الوسادة التى ينام عليها..

وكان ابن عمتى يستمع إلى هذه الأحاديث، ويسخر منها، ويسخر من

أم إبراهيم.. ويقول لها ضاحكا « يا حاجة بلاش تخريف.. ده كلام فاضى »!

وترد أم إبراهيم قائلة : « يا بنى استغفر الله .. ده الجن مذكور فى القرآن .. »

وأنا خائف :. أصدق أم إبراهيم وأصدق القرآن.. ولا أستطيع أن أكذب ابن عمتى.. البطل الذى أؤمن به وأسير وراءه..

وفى إحدى الليالى، وكنت نائما تراودنى الأحلام المفزعة التى تتبعنى كلما سمعت حديث العفاريت.. أحسست بيد تهزنى بقوة، فصحويت مفزوعا وصرخة هائلة محتبسة فى حلقى.. ورأيت أمامى ابن عمتى مرتديا زى الكشافة كاملا، وحبل الصفارة يلتف حول كتفه والخنجر معلقا فى حزامه ، وفى يده بطارية صغيرة..

وقال ابن عمتى هامسا حتى لا يوقظ من حولى :

— قوم البس جزمك !

قلت وأنا لا أزال أعانى أزمة الفزع :

— حانروح فين يا حسين.. حانسافر ؟

قال وهو يتعجلنى :

— لا .. قوم بس البس جزمك !

وقد قلت لكم إنى كنت دائما أسير وراء ابن عمتى.. أقلده.. وأأتمر بأمره .. فقممت ألبس حذاثى .. وأنا أحبس اعتراضى، حتى لا يعتقد أنى خائف..

ثم خرجنا من البيت على أطراف أصابعنا.. وأنا أسير بجانب حسين فى خطوات مهتزة مرتديا الجلباب الذى كنت نائما به .. وهو يسير بخطوات قوية مرتديا زيه الرسمى، ويتلفت حوله كأنه يبحث عن شىء يصطاده..

ولا أدري كم كانت الساعة.. ربما كانت الواحدة بعد منتصف الليل أو أكثر.. والظلام حالك ثقيل حتى تكاد تلمسه بيدك.. والقريه نائمة صامتة.. ووقع أقدامنا فوق التراب له صوت كأنه دبيب حيوان ضخمة.. وأعواد الذرة تتمايل وتصدر عنها وشوشة هائلة كأنها فحيح ملايين الثعابين.

وقلت لابن عمتي وأنا أسرع الخطى لأكون دائما بجانبه ملتصقا به :
— مش تقول لي حانروح فين يا حسين ؟
قال في بساطة:
— حانروح نشوف العفرية !
ووقفت عن السير مرة واحدة.. وارتعدت ركبتاي.. كلي ارتعش.. وقلت
من بين أستاذي المصطكة:
— إيه .. إيه .. إيه..
ونظر إلى ابن عمتي كأنه يحتقرني.. وقال في صوت آمر، كأنه ضابط
تركي من ضباط الجيش القدامى:
— أنت خايف ؟
قلت وأنا أنظر إليه كأنى استغيث به :
— لا .. مش خايف .. مش خايف .. بلاش يا حسين.. والنبي بلاش..
قال في لهجة الضابط التركي :
— خليك راجل .. احنا لازم نثبت لأهل البلد أن كل الكلام اللي بيقلوه
عن العفارية.. كلام فاضى.. خرافات..
ثم خطا إلى الامام في خطوات عسكرية، كأنه كان واثقا من أنى لن
أستطيع أن أعود إلى البيت وحدي..
ولحقت به والدموع تتجمع في عيني ، وأنا أحاول أن أحبسها.. وسرت
بجانبه أحاول أن استمد منه بعض شجاعته.. وأحاول أن أخطو مثل
خطواته العسكرية.. وإن أتلفت حولي مثل لفتاته القوية.. ولكنى كل ارتعد..
وقلبي يرفرف كالحمامة الذبيحة.. والدموع المتجمعة تحت جفوني، تؤلمنى
كأنها حبات الحصى..
ولم نتكلم..
والليل الكثيف.. والصمت الثقيل.. وشوشة أعواد السدرة كأنها فحيح
ملايين الثعابين..
ووصلنا إلى منطقة المقابر.. ولم أعد أستطيع السير.. وشخط في ابن
عمتي :

— اتجدعن آمال .. خليك راجل !

وامسكت بكم قميصه، وسرت بجانبه، كأنى ازحف ، وهو يشدنى .. إنى خائف .. خائف .. والظلام يملأ عينى .. وأعواد الذرة سوداء .. والفحيح يملأ صدرى ..

ووصلنا إلى المقابر نفسها ..

إنى لم أعد استطيع .. أحس أنى سأتكفىء على وجهى .. أريد أن أعود .. أريد أن أعود .. وحياة النبى يا حسين .. وحسين يجرنى من نراعى وراءه .. ثم أضاء بطاريته وسلطها على المقابر، وقال بلهجة ساخرة: — ولا عفاريت ، ولا حاجة .

ثم تقدم ناحية قبر من القبور ، وجلس على الأرض مستنداً بظهره إلى حائط القبر، والبطارية في يده، والخنجر في يده الأخرى .. وجذبني معه قائلاً :

— أقعد .. لغاية ما يشرف سى العفريت !

وجلست ورعشة كالحمى تسرى في أوصالى .. وأطقاً حسين نور البطارية ولاحت القبور أمام عيني كالأشباح الجالسة .. ووجدت عيني تتركزان على قبر بالذات .. ولا استطيع أن أرفعهما عنه .. ثم رأيت حائط القبر ينشق .. ويخرج منه هيكل من العظم .. يفتح فكيه ويقهقه .. وأنا لا استطيع أن أصرخ .. ولا أن أبكى .. ولا أن التفت بعيني ناحية أخرى .. كل شيء في متجمد .. الخوف نفسه خائف .. لا استطيع أن يعبر عن نفسه .. لا استطيع أن ينطلق .. وفجأة أضاء نور ساطع .. وشهقت .. شهقة حادة .. أحسست معها أن روحى زهقت .. وسمعت ابن عمتى يقول لى :

— ما تخافش .. ده أنا ولعت البطارية ..

وبدا ابن عمتى يتكلم .. يتكلم كثيراً .. وأنا لا اسمع كلامه .. إنى خائف .. خائف إلى حد الموت .. وارتفع جليابى من فوق ساقى .. ربما كان الهواء قد طيره .. ولكنى أحسست كأن نراعى العفريت قد رفعت، وأنه يمد يديه ليمسكنى من ساقى، ويفسخنى .. وحاولت أن أصرخ .. فلم استطع ..

حاولت أن أمد يدي لأمسك بابن عمتي.. ولم استطع أن أحرك يدي..
وتنبهت إلى أن ابن عمتي قد كَفَّ عن الكلام.. فقلت بما بقي من أنفاسي
المرتعشة :

— حسين ..

وسمعتة يقول وكأن صوته يرتعش مثل صوتي :

— البطارية ما بتولعش..

ثم سمعته يردد :

— الله لا إله إلا هو الحي القيوم.. لا تأخذه سنة ولا نوم.. الله لا إله إلا

هو الحي ..

وأنا أرى شيئاً في الظلام يتحرك.. ان الظلام نفسه يتحرك .. ثم فجأة..

انطلقت صرخة حادة.

وجذبتني يد جذبية قوية .. وأخذت أجري .. وحسين يجرى أمامي ..

وهو يردد :

— الله لا إله إلا هو الحي القيوم.. لا تأخذه سنة ولا نوم.. الله لا إله إلا

هو الحي..

ووصلنا إلى البيت..

وسقطت في الفناء مغشياً علي.. وجرني حسين ، ووضعني في فراشي،

دون أن يحس بنا أحد..

وفي اليوم التالي.. كنت مريضاً.. وظللت أكثر من اسبوعين مريضاً..

ولم نرو ما حدث لأحد.. لا أنا ولا حسين.. بل إن حسيناً لم يذكر شيئاً

عن خنجره الذي عاد إلى البيت بدون.. ولكنني فوجئت عندما عادت أم

ابراهيم تروي لنا قصص العفاريات، بحسين يقول لها :

— يا حاجة بلاش تخريف .. ده كلام فاضى !!

هذا ما حدث لي وأنا في الثامنة من عمري.. ومن يومها وأنا اتساءل : هل

توجد عفاريات ؟

وقد قرأت كل الكتب التي يمكن أن تعينني على الوصول إلى الجواب،

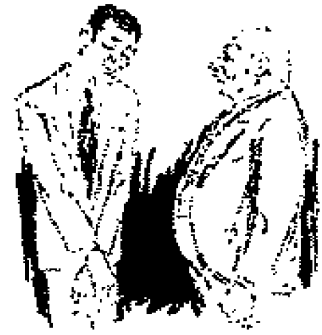
ورغم ذلك فلا زلت حائرا.. وكلما اقترب عقلي من الجواب ، ثارت في نفسي
حادثة القرية التي وقعت لي وأنا في الثامنة من عمري.. ووجدت نفسي أعود
حائرا كما كنت..

وأنا لا أجزم بأنني قد رأيت العفريت في صفري ، كل ما أجزم به هو هذه
الاحاسيس التي ثارت في نفسي يوم ذهبنا نبحث عن العفاريت..
والعالم الباحث كي يصل إلى الحقيقة، يجب أن يتجرد من الاحاسيس.
يجب أن يكون عقلا خالصا.. عقلا فقط.. ولكن العلماء ليسوا سوى أفراد
من الناس.. ليسوا سوى ، انسان.. والله لا يريد الانسان أن يصل إلى
الحقيقة.. إلى كل الحقيقة.. فلم يخلق له عقله فحسب، بل خلق معه
الاحاسيس التي تضلل العقل..

هل فهمتموني ؟



سأكتفى بالحب



تسألني لماذا فسخت خطبتي؟
السبب بسيط، قد يبدو من فرط بساطته
غريباً.. ولكنه كان كافياً لأفسخ خطبتي،
واختق حبي، واهدم بيدي كل أحلامي.
واسمع قصتي من أولها.. ولا تنتظر أن
تسمع شيئاً مثيراً.. فليس في قصتي حوادث، ولا
مأساة، ولا فصول.. إنها فصل واحد هادئ، يسير في رفق كمياه القناة
الصغيرة التي تشق أرض الحقل.. وينتهي حيث تنتهي مياه القناة.. تشربها
الأرض ولا يبقى بعدها إلا الجفاف.

لقد التقيت بسميحة بين مكاتب الشركة التي أعمل بها.. جاءت لتزور
بعض صديقاتها.. وقدموني إليها.. وتحدثنا طويلاً.. وكان حديثها منطلقاً
ممتعاً خفيفاً، ليس فيه تكلف ولا نكات مفتعلة.. وكنت أيامها خارجاً من
مأساة حب فاشل.. وكنت أبحث عن السلوى.. عن شيء أداوى به جرح
قلبي، ويشرح صدري، ويعيدني إلى ثقتي بنفسى.. والرجل في مثل هذه
الظروف يصبح ضعيف المقاومة.. يصبح وكأنه في دور النقام، معرض
لالتقاط المرض من جديد.

ورغم ذلك فإني لم أحب سميحة من النظرة الأولى، رغم حديثها المنطلق
الممتع.. ولكنني أعجبت بها.. كانت صغيرة.. صغيرة في عمرها.. وصغيرة في
حجمها.. وصغيرة في ملامح وجهها.. يخيّل إليك أنك تستطيع أن تحملها
العمر كله، دون أن تتعب.. وكانت أيامها لا تزال طالبة في كلية الآداب..
وتمنيت أن تأتي كل يوم إلى الشركة، لأراها، وأسمع حديثها المنطلق
الخفيف.. وقد جاءت.. جاءت كثيراً.. واتصلت أحاديثنا.. وبدأت تمنحني
من اهتمامها أكثر مما تمنح صديقاتها اللاتي جاءت لزيارتهم.
وفي يوم، تركتها تخرج من الشركة، وخرجت وراءها.. لحقت بها في
الشارع، واستوقفتها، وقلت لها في لهجة جدية كأنى أعرض عليها بوايصة
تأمين على الحياة:

— هل لك علاقات عاطفية ؟
وفوجئت بالسؤال، ولكن طبيعتها البسيطة تغلبت على دهشتها،
واجابت وهي تبتسم :

— لا .. ليس لى علاقات عاطفية !
قلت وأنا لا زلت محتفظا بلهجتى الجدية :
— هل تمانعين فى أن تكون أصدقاء ؟
واتسعت ابتسامتها كأنها فرحة بهذا الأسلوب الجديد فى التقدم لها،
وقالت :

— لا .. لا امانع !
قلت :
— ارجو أن تفهمينى .. فأنا لا أحبك، ولا اعتقد انك تحبيننى .. وكل
ما أطلبه منك أن تبدأ صداقة، قد تنتهى إلى حب، وقد تنتهى إلى لا شىء.
قالت :

— انك خائف .. لابد أن فى حياتك صدمة عاطفية .. حب فاشل !
قلت وأنا مبهور بذكائها :
— ما ادراك اننى خائف .. وما ادراك أن فى حياتى حبا فاشلا .
قالت :

— لأن هذا التحذير عن مصير صداقتنا، هو تحذير لنفسك .. حتى
لا تخدع فى الحب مرة ثانية !
ولم أخف عليها .. اعترفت لها بصدق احساسها .. ورويت قصة حبنى
الفاشل، بل رويت لها منذ اليوم الأول قصة حياتى كلها، حتى اسم أمى
نكرته لها.

وأصبحنا أصدقاء.
مجرد أصدقاء.
تلتقى مرة أو مرتين فى الأسبوع .. ونذهب إلى السيما، أو نجلس فى
كازينو الشجرة .. ونتحدث .. ولا شىء أكثر من هذا.
ولكن ..

بمرور الأيام بدأت أشعر بالحاجة إليها.. بدأت انتظر موعدها.. واشتاق إليها.. وأعد نفسي للقاءها.. ولم أعد احتاج إليها لأداوى بها جرح قلبي القديم، فقد اندمل الجرح.. ونسيت الفشل.. وأصبحت احتاج إليها لذاتها.. بدأت أحبها وأحسست أنها تحبني هي الأخرى.. أنها تترك يدها في يدي.. وتضم عيني بعينيها.. وابتسامتها تشرب من ابتسامتي.

وسألتها مرة :

— ألم يكن في حياتك حب .. ألم تكن لك علاقة سابقة بأحد من الشبان؟

قالت :

— أبدا.

قلت :

— لا تخفى علي .. فأنا كما تعلمين لا أحبك، وأنت لا تحبينني.. اننسا أصدقاء، وإن يؤثر في صداقتنا أن تكون قد مرت بك تجربة حب.

قالت :

— لا.. لم تمر بي تجربة حب!!

قلت :

— مستحيل .. انك الآن في العشرين من عمرك .. ولا بد أن تجربة مرت بك.. ولو تجربة قبلة.

قالت :

— لا.. ولا حتى تجربة قبلة.. صدقني!!

وصدقتها.

وأحببتها.

لم أعد أخفى عن نفسي، ولا عنها، اني أحبها.

وأحبتنى.

وانطلقنا في أرض الحب.

انطلقنا بكل ما في شبابنا من قدرة على الانطلاق.. كأننا تخرج كل يوم من الجامعة، وتنتظرني على ناصية الشارع الذى تقع فيه الشركة.. ثم نذهب سويا لنتناول الغداء.. قطع من الساندويتش في محل البامبو.. ثم

نذهب إلى السينما.. أو إلى حديقة الاندلس.. أو إلى كازينو الشجرة.. ويدي دائما في يدها.. وعيناي في عينيها.. وابتسامتي تشرب من ابتسامتها.. وحديثنا لا ينقطع.. ونظل سويا حتى الساعة الخامسة، وأحيانا إلى السابعة.. ثم تعود إلى بيتها.. وبمجرد أن ينام أهلها تتصل بي في التلفون، ونظل نتحدث حتى الثالثة أو الرابعة صباحا.. من أين كنا نأتى بكل هذا الكلام؟ لا أدري!

وبدأت فكرة الزواج تراودنى.. ولكنى كتمتها عنها.. وأخذت أمهد لها.. لفكرة الزواج.. فدعوتها إلى بيتى لتتعارف إلى أمى وإلى اخوتى البنات.. وأحببتها أمى، وأصبحت صديقة لإخسوتى.. وبدأت تزورنا كثيرا.. وبلا موعد.. ورأتنى كما أنا فى بيتى.. رأتنى بالبيجاما.. وأنا أحلق ذقنى.. وأنا أشخط فى خادمتنا بهية.. وخيل إلى أن بيتنا قد ازداد سعادة بها.. اننا نمرح دائما.. ونضحك كثيرا.. والدنيا من حولنا حلوة.

وجاءت مرة إلى البيت، ولم يكن فيه احد إلا أنا.. خرجت أمى واخوتى.. وربما تعتقد أنى تعمدت أن أبقى فى البيت وحسدى.. لايهم.. اعتقد ما تعتقده.. المهم اننا وجدنا أنفسنا وحيدين فى البيت.. وحاولنا أن نتحدث كعادتنا.. ولكننا شعرنا - نحن الاثنين - اننا فى حاجة إلى شىء أكثر من الحديث.. شىء انتظرناه طويلا.

وسكت الحديث بيننا.. واقتربت عيوننا.. و.. ومددت ذراعى إليها، كأنى ادعوها إلى الجنة.. ثم .. ثم قبلتها.. بكل شبابى.. بكل حبى.. بكل انطلاقى.. وفجأة، رفعت شفتى عن شفتيها.

لا ..

ليست هذه قبلة فتاة لم تذوق القُبُل من قبل، انها قبلة من شفاه خبيثة بالقبيلات.. إن البنات مغفلات.. انهن لا يعلمن أن الشاب يستطيع أن يميز بين الشفاه البكر، والشفاه المجربة ، من أول قبلة.

وصرخت فيها :

— من علمك التقبيل ؟

قالت فى ارتباك :

— لا احد.. لم يقبلنى احد قبلك!

قلت صارخا :

— كاذبة.. إن قبلك قبلة فتاة مجربة!

قالت كأنها تتوسل إلى :

— ربما كان حبيبى، قد أطلق شفتى!

قلت :

— هذا كلام.. لقد خدعتينى!

وغضبت.

وتركت البيت غاضبة.

ولكنى ما لبثت أن هدأت، وبدأت أتمس لها الاعتذار.. ماذا لو كان قد قبلها احد قبلى.. لماذا يبيع الشاب لنفسه حق التجربة ولا يبيع نفس الحق للبيت.. انها شريفة.. وقد مضى على حبنا أكثر من سبعة شهور تأكدت خلالها انها شريفة، وان ليس فى حياتها احد غيرى.. ولن يقلل من شرفها أن يكون فى حياتها أحد قبلى.

وعدت إليها ..

وبدأنا الحب من جديد.. أكثر انطلاقا.. وأكثر جرأة.. لم تعد تكفيننا السيئنا، أو كازينو الشجرة.. ولم يعد يكفيننا الحديث.. اننا نريد القبلات.. ومزيدا من القبلات.. ونحن نلتقى كل يوم.. ونتحدث فى التليفون حتى الصباح.

ولم يعد هناك مجال للتردد.. لم أعد احتمل التردد.

ذهبت إلى أهلها.. وخطبتها.

ثم..

ثم بدأ كل شيء يتغير.

لقد دعونى فى اليوم التالى لاعلان الخطوبة، للفداء عندهم.. وجلست معها بين ابىها وأمها وأخوتها.. كانى جالس أمام محكمة.. والأسئلة سخيفة، والاجوبة أسخف منها.. وحديث ممزق، ونكات مفتعلة. واحتملت كل هذا، وهمست فى أذن سميحة :

— لنذهب إلى السينما .. بعد الغداء.

وإذا بسميحة تصيح :

— ماما، محمود يدعوني إلى السينما ؟

وابتسمت الأم ابتسامة كبيرة وقالت :

— وماله يا حبيبتي.. ويذهب معكما أخوك!

وذهبنا إلى السينما ومعنا أخوها.. ويدى ليست فى يدها.. وعيناي

لا تضمان عينيها.. وابتسامتى لا تشرب من ابتسامتها.. ولا قبلات !

وفى اليوم التالى لم تنتظرنى على ناصية الشارع الذى يقع فيه مقر

الشركة.. واتصلت بها فى التليفون ملهوها، وقد اعتقدت أنها مريضة..

وردت على.. انها ليست مريضة.. ولكنها تنتظرنى فى البيت لتناول الشاي.

وذهبت لتناول الشاي.. وجلست معها أمام المحكمة.. الأسئلة

السخيفة.. والاجوبة السخيفة.. والنكات المفتعلة.. والحركات المتكلفة.

ولا اظيل عليك .

أصبحت عريسا.

بكل ما يحيط بكلمة عريس من تكلف زائف، ومن رسميات، وتقاليد

فارغة، لم أعد أرى سميحة وحدها.. اذهب إليها لأجلس معها بصحبة

أهلها.. وتأتى إلى بيتنا ومعها أمها.. ولم أعد أقبلها إلا خلصة.. كلما سمح

أهلها وتعمدوا أن يتركونا وحدنا بضع لحظات.. ولم أعد اخرج معها إلا

بصحبة أحد من أهلها.. ولم يعد حديثنا التليفونى يدوم حتى الصباح..

كأنما إعلان خطوبتنا قد أغنى سميحة عن الحب.. كأنها ضمنت أنى

أصبحت فى يدها، فلم تعد تبذل مجهودا للاحتفاظ بى.

وكان هذا فوق منطقى.

لم أستطع أن أقنع نفسى بأن حقى على سميحة قبل الخطوبة، يزيد على

حقى عليها بعد الخطوبة.

لم أستطع أن أقنع نفسى أن الخطوبة لها تقاليد، ولها مظاهر، تختلف

عن تقاليد ومظاهر الحب.

لم أستطع أن أقنع نفسى بأن الخطوبة حرمان، ورسميات، وتقاليد

سخيفة.. وقضبان من حديد يضعها الأهل بينى وبين خطيبتى.

ولم أعد احتمل.
ارسلت إلى سميحة انذارا مدته أسبوع واحد.. ان لم نعد كما كنا.. إن
لم نعد إلى انطلاقنا ومظاهر حينا خلال هذا الأسبوع، فإن على سميحة وأم
سميحة وأبى سميحة، ان يتحملوا نتيجة ما يحدث.
ولم تستسلم سميحة إلى الانذار.. ربما لم تصدقه.
وبكل بساطة.. فسخت الخطية.
وصدقنى..
لن أخطب ثانية.. سأكتفى دائما بالحب!



الكبار والصغار

انكم تتحدثون كثيرا عن سن المراهقة،
وتصفون المراهقين بالانحلال.. وتنسبون
أسباب انحلالهم إلى الأفلام السينمائية حيناً،
وإلى القصص الجنسية حيناً آخر، وإلى إهمال
الآباء.. و.. و.. كل منكم يحاول أن يجد سبباً
جديداً لانحراف المراهقين، ليبدو أمام قرائه



استاذاً كبيراً جليلاً، وقائداً من قادة الجيل..

اسمحوا لى .. كلكم جهلة.. أو مدعون!

لقد كنت مراهقاً.. أسف.. أنا لا زلت مراهقاً.

وأنا منحل.. كل الصفات التي تصفون بها المراهقين تنطبق على..
الانحراف، الاستهتار، قلقة الأدب، الانغماس في اللهو.. و.. و.. كلها من
صفاتى، بلا فخر!

وأنا أعرف بالضبط سبب انحلالى وانحرافى، وليس بينها — للأسف —
سبب من الأسباب التي تفتقت عنها عبقرياتكم.. فأنا لا أذهب إلى السينما
إلا نادراً.. وآخر فيلم شاهدته كان فيلم «خالد بن الوليد».. يا حفيظ.. وأنا
لا أقرأ قصص إحصان عبدالقدوس.. انى في الواقع لا أقرأ القصص أبداً..
حاولت مرة أن أقرأ قصة «شجرة البؤس» لطفه حسين، فلم أستطع أن أقرأ
فيها أكثر من أربع صفحات.. والمجتمع الذى نشأت فيه ليس له مشاكل..
لا مشاكل اقتصادية ولا نفسية.. والذى رجل قاضل، لا يدللى،
ولا يهملنى، ولا يقسو على، بل يحاول دائماً أن يناقش أخطائى في هدوء..
ووالدتى سيدة قاضلة تحيطنى بحنان حازم.

وحتى سن السادسة عشرة، كنت فتى رائعاً.. كنت أنجح دائماً في كل
امتحان.. وكانت هوايتى هى الشطرنج.. و.. عضلاتى.. كنت اهتم اهتماماً
كبيراً بعضلاتى.. كنت رياضياً.. بطل النادى في الاسكواش راكيت.. وكنت
ألعب التنس.. وكرة السلة.. وكرة القدم.. والكرة الطائرة.. واشترك في
مسابقات السباحة.. و..

وكنيت أحب سعاد .. سوسو..
كانت في الخامسة عشرة من عمرها.. أصغر منى بعام.. حلوة.. جريئة..
هى التى علمتنى كيف أقبلها.. كانت أول فتاة أقبلها فى حياتى..
وكانت سوسو تحببى..
لم أشك أبدا فى حبها.

وكنّا نلتقى كل يوم فى النادى بعد عودتنا من المدرسة.. وتقف
لتشاهدنى وأنا ألعب الاسكواش.. وكنيت أحس انى ألعب من أجلها.. لم أكن
أسمح لأحد أبدا بأن يغلبنى أمام سوسو.. كنت انتصر دائما.. وأحس انى
اعطيتها انتصارى لتتباهى به أمام بقية فتيات النادى.. ثم بعد أن انتهى من
اللعب، كانت تنتظرنى إلى أن أبدل ثيابى ثم نتمشى سويا فى ملاعب
النادى، أو ننضم إلى شلة الأصدقاء.. ونحدث .. حديثنا لا ينضب أبداً..
وعيناى لا تملان عينيها .. وعيناها لا تملان عينى..
وانقضى عام على حبنا.

وفى يوم، لمحت سوسو واقفة فى النادى مع شاب.. رجل.. انى أعرفه..
انه واحد من الرجال الذين يجلسون فى بار النادى وهو فى الثلاثين من
عمره .. على الأقل .. له شارب صغير، ويملك سيارة شيفروليه..
لماذا تقف سوسو معه ؟

ووقفت بعيدا انتظر أن ينتهيا من حديثهما.. لم أجروا على ان انضم
إليهما أو أناديهما.. لا أدري لماذا..
وطال انتظارى.

ثم تركته وجاءت إلى، وهى تتقصع فى مشيتها أكثر من عاداتها..
ورأسها مرفوع، وعلى شفيتها ابتسامة غريبة، وقالت لى فى لهجة مفتعلة
كأنها تحدث طفلا:

— ازيك يا جلال.. لعبت اسكواش ؟!
ونظرت إليها كأنى أبحث فيها عن شىء فقد منها، وقلت وقد بدأت
أعصابى تهتاج :
— مين اللى كنتى واقفة معاه ده ؟
قالت يلا مبالاة :

— ده محمد .. ما تعرفوش ؟

قلت وأنا أكاد أختقها بعيني :

— أيوه عارفه .. انما ايه اللى وقفك معاه؟

قالت وهى تهز كتفها وتزيح خصلة من الشعر وقعت على جبينها :

— وفيها ايه .. ده صاحب أخويا.

قلت :

— ده أد أبوكى.

قالت فى حدة :

— من فضلك .. أنا مش صغيرة .. أنا عندي سبعناشر سنة .. ثم انه

مش أد أبويا .. قلت لك انه صاحب أخويا .. وعمره ما يكملش الثلاثين !

وكانت هذه هى المرة الأولى التى تحتد فيها .. وتكررت مشاداتنا .. وكلها

كانت بسبب سى محمد هذا .. ولكن سوسو كانت تجد دائما وسيلة لإنهاء

خناقاتنا .. وكانت أقوى وسائلها قبلتها .. وكانت لا تزال تحرص على أن

تشاهدنى فى كل مرة ألعب فيها الاسكواش .. لأمنحها النصر الذى تتباهى

به أمام بقية الفتيات.

ثم كانت المباراة النهائية على كأس النادى .. ولم أعثر على سوسو قبل

المباراة .. وارتديت ثياب اللعب، وذهبت إلى الملعب، ووقفت فى انتظارها ..

ولكنها لم تأت .. وجاء دورى فى اللعب .. وهى لم تأت .. ووقفت ساهما ..

خيل إلى انى لن أستطيع أن انتصر إذا لم تأت سوسو .. لن أستطيع أن

ألعب .. وفجأة تركت الملعب، والجمهور يصيح ورائى ولا اهتم بصياحه ..

وخرجت إلى حدائق النادى أبحت عن سوسو، ومضرب الاسكواش لا يزال

فى يدي.

ورأيتها .

رأيتها من بعيد.

كانت تسير مع محمد، متجهين إلى موقف السيارات ..

وظللت واقفا حتى شاهدها تركب بجانبه فى سيارته .. ثم تنطلق بهما

السيارة .. إلى بعيد.

وفجأة .. دون أن أدري .. رفعت ذراعى وطوحت بمضرب الاسكواش فى

الهواء.. وخرجت من النادي وأنا لا زلت بملابس اللعب.. وأخذت أسير في الشوارع في خطوات سريعة متعشرة كأني أهرب.. أهرب من وحش يلاحقني.. وفي رأسي نار.. وفي قلبي نار.. وفي عيني نار.. ماذا أفعل.. هل ادبر جريمة لقتل محمد.. هل اقتل نفسي.. أرمي نفسي في النيل.. وعدت إلى البيت.. وانكفات على سريرى أبكى.. بكيت كثيرا.. وأفقت من بكائي، وأنا أسأل نفسي: ماذا يعجب سوسو في محمد؟

يعجبها فيه انه كبير.. انه رجل!!
وأنا أيضا كبير.. أنا رجل.. وكل ما ينقصني لاتخذ مظهر الرجال هو أن يكون لي شارب.. شارب صغير كشارب محمد!
ونظرت إلى وجهي في المرآة.. انى احلق ذقني وشاربي كل يسومين.. ولو انتظرت أسبوعا واحدا دون أن احلق، لاصبح لي شارب.. ولحية أيضا إذا أردت!

وانتظرت أسبوعا.
وأصبح لي شارب.
وذهبت إلى النادي.. وقد قررت أن أبدي أمام سوسو مستهترا.. و.. واد تقيل.. وقابلتها، ونظرت في وجهي، وصاحت :
— أنت حاتري شنيك ؟

قلت وأنا انظر إليها من عل كأنها فتاة صغيرة :
— مش عاجبك ؟
قالت :

— مش لايق عليك !
قلت وأنا أضحك ضحكة غليظة، كضحكة الرجال :
— بكره تاخدي عليه!

ثم نظرت في عينيها وقلت :
— وانتى عاملة ايه مع محمد.. شفتك الجمعة اللي فاتت في عربيته؟
قالت :

— أصل كان عندي مخص، وخدني يوصلني البيت.. وانت ما لعبتش

يومها ليه؟

قلت ساخرا :

— كان عندي مغمص.. بس ما لقتش جد يوصلني البيت.

قالت وهي جالسة :

— ومش حاتلعب النهاردة ؟

قلت :

— بيتنى وبينك الواحد كبير خلاص على اللعب!

قالت :

— طيب تعالى نقعد فى الجنة.

قلت :

— لا.. أنا حاقعد فى البار.. عن اذنك!

وتركتها ودخلت البار.. لأول مرة.. ووجدت هناك شلة من أصدقائى
الأكبر متى سنا، فجلست معهم.. وشربت الويسكى.. لأول مرة.. ودخنت
السجائر.. لأول مرة.. وإن أصف لك طعم الكأس الأول، والسيكارة الأولى،
فلا بد أنك تعرف طعمهما.. ولكن المهم.. انى أصبحت كمحمد.. لى شارب
صغير.. مثله.. وأشرب الويسكى.. مثله.. وأدخن مثله.

ولم تعد لى سوسو.. لم تعد تحاول أن تكذب على وترضىنى.. اندفعت
بكل صياها، وكل جمالها، وكل وقتها الفاضى، مع محمد.. محمد الذى
يكبرها بأربعة عشر عاما على الأقل.

ولم أكن أستطيع أن أسكت.

كان يجب أن أنتقم منها.

ولم تكن هناك طريقة لأنتقم منها، إلا بأن أعرف بنتا أخرى.. بل كثيرا
من البنات.. ولم أكن أستطيع أن أعرف البنات إلا إذا خدعتهن، وضحكت
عليهن.. وتعلمت كيف لخدعهن وأضحك عليهن.. وكيف آخذ أجسادهن، ثم
أدور أحكى لأصدقائى قصة جسد كل منهن.. فإذا جاءت سيرة سوسو،
صحت ضاحكا :

— قديمة يا أستاذ.. شوف لنا حاجة جديدة !

وكان ينقصنى كى تتم رجولتى الجديدة أن تكون لى سيارة.. فكنيت
أخذ سيارة العائلة.. أخذها أحياناً برضاء والدى، فإذا لم يرض، سرقتها من
الجراج.. وكان ينقصنى كثير من المال لأشرب الويسكى، وأدخن، وأسهر
فى الكاباريهات.. وكان والدى يعطينى كثيراً، فإذا لم يعطنى سرقت.. لم أبدأ
بالسرقة ولكنى بدأت ببيع جميع أدواتى الرياضية!
وفى خلال عام أصبحت واحداً من المراهقين الذين يتحدثون عنهم فى
الصحف..

ثم ..

أتدري ماذا حدث ؟

عادت إلى سوسو .. خدعها محمد ولم يتزوجها.. خدعها لأنه رجل ..
وقد جاءت إلى تبحث عن السلوان.
ولكنى رجل أنا الآخر.
أنا لا أقل عن محمد.

والرجال يخدعون البنات.. فلماذا تعتقد أنى لن أخدعها.. لماذا تطمئن
إلى.. هل تعتقد أنى طفل.. طفل لا أجيد فنون الخداع؟!
وخدعتها.

خدعتها أكثر مما خدعها محمد !

ماذا تقول يا أستاذ؟!

تقول أنى مراهق سافل منحرف.. ولكن.. إن الرجال أيضاً سفلة
منحرفون!!



لن أقرأ الصحف



أنا رجل بسيط الحال.. غاية ما وصلت
اليه ان اشتغلت سائقاً لسيارة السيد مرسى
عبدالعزیز مدير شركة القوريدات، بمرتب
قدره خمسة عشر جنيهاً في الشهر.. ولا أظن
انى سأصل في حياتى إلى أكثر من هذا..
والواقع انى لا أطمع في أكثر من هذا ..

وقد تزوجت من ابنة عمى وأنا في العشرين من عمرى .. امرأة
قروية طيبة ، لا تقرأ ولا تكتب .. ولكن لها من ذكاؤها وطيبة قلبها
ما يغنيها عن القراءة والكتابة.. ورزقت منها بنتين.. فاطمة،
وسميرة.. وسميرة أجمل وأرق من فاطمة.. عيناها واسعتان كعيني
أمى.. ولجمالها ورقتها منحتها من حبنى ورعايتى أكثر مما منحت
أختها..

وأنا لم أتم تعليمى.. لم أزل أكثر من الشهادة الابتدائية.. وليست لي
هوايات.. لا أدخن ولا أتردد على المقاهى، ولا أشرب الخمر.. لا شىء أبداً..
هوايتى الوحيدة هى قراءة الصحف والمجلات.. كنت أدفع لعبد المتعم بائع
الجرائد الذى يقف أمام مقر الشركة، خمسة قروش في الاسبوع، نظير
قراءة جميع الصحف والمجلات العربية، على ان اردها اليه في نفس يوم
صدورها.. وكنت أقرأ كل شىء في الجريدة أو المجلة.. ما يهمنى
وما لا يهمنى.. وما افهمه وما لا افهمه.. ان الكلمة المطبوعة لها على تأثير
السحر، كالخدر انى ادمن على الكلام المطبوع.. وربما لو قدمت لي نفس
الكلام مكتوباً بخط اليد، لما قرأته، ولو قرأته لما اقتنعت به ولما ترك في
نفسى أثراً.. ولكن إذا طبع هذا الكلام في جريدة أو مجلة شربته بعينى،
وبعقل، وبكل حواسى..

وكان أكثر ما اهتم بقراءته هو ما يكتب عن البنات.. ربما لأنى .. كما
تعلمون .. اب لبنتين.. وكانت الآراء التى تدعو إلى حرية البنات، وتعليمها،
واقترانها ميادين العمل.. و.. و.. هذه الآراء التى يدعو اليها كبار الكتاب،
كانت تحيرنى، وتثير في نفسى معركة عنيفة.. فقد نشأت في بيئة لا تعترف

للبنات بشيء من هذه الحقوق، بل لا تعترف لها حتى بحق التعليم.. كل بناتنا جالسات في البيوت.. وأمى لا تقرأ ولا تكتب، واختى لا تقرأ ولا تكتب، وزوجتى لا تقرأ ولا تكتب.. ونحن قوم سعداء.. بيوت سعيدة، وزواج سعداء، وأولاد سعداء.. ورغم ذلك فسحس الكلمة المطبوعة يسرى في اعصابى ويتسلل إلى عقلى.. إلى أن تجرات وادخلت فساطمة وسميرة المدرسة..

ولم اطمئن إلى جرأتى في مبدأ الأمر.. كانت الجذور التى تربطنى بأجدادى وبيئتى تجعلنى أحياناً أثور على نفسى لأنى ادخلت البنيتين المدرسة.. وتجعلنى أفكر كل يوم في اخراجهما منها.. وكنت ارقبهما في رواحهما وغدوهما، وانظر إلى وجهيهما كأنى أبحث فيه عن آثار فضيحة، أو بصمات رجل.. ثم مع مرور الأيام بدأت الجذور التى تمتد إلى اجدادى وبيئتى، تضعف وتموت.. وأصبحت مطمئناً إلى تعليم البنيتين.. وكلما انتهتا من مرحلة من مراحل التعليم، دفعتنى الكلمة المطبوعة، إلى السماح لهما بالانتقال إلى مرحلة أخرى.. حتى نالت كل منهما شهادة الثقافة الثانوية.. ولم اكن اطمع، ولا كان في قدرتى، ان اتركهما يستمران في التعليم إلى أكثر من هذا الحد..

ثم بدأت أزمة نفسية تتناوبنى من جديد.. هل اسمح للبنتين بالعمل؟ واحسست ان الجذور التى تمتد إلى أجدادى وبيئتى قد نشطت من جديد وبدأت تقلقنى.. ليس في بلدتنا كلها فتاة تعمل أو امرأة تعمل.. كلهن جالسات في البيوت.. ولكن الكلمة المطبوعة تحرضنى.. وتتسلل إلى منطقتى.. ان ملايين البنات يعملن.. في المصانع في الشركات، في الاتوبيس، في هيلتون.. وكلهن بنات لهن آباء مثلى.. فلماذا لا أسمع لبناتى بالعمل..

وقررت ان اسمح للبنيتين بالعمل.. وفرحت البنيتان.. وجاء ابن اخى يخطب سميرة - البنات الصغرى - ولكنها رفضت.. لأنها تريد ان تعمل.. وأنا اريدها ان تعمل..

وسعيت لهما عن طريق مخدومى السيد مرسى عبدالعزيز، حتى وجدت لكل منهما عملاً.. أصبحت فاطمة موظفة في البنك اليونانى.. وأصبحت سميرة موظفة في الشركة التى اعمل بها.. شركة التوريدات.. وازدادت فرحتى بهما..

لقد عوضنى الله عن إنجاب الأولاد.. انهما أكثر بركة وخيرا من الأولاد..
وارتفع دخل العائلة.. ان مرتب سميرة اثنى عشر جنيها، ومرتب فاطمة
خمسة عشر جنيهاً .. مثل مرتبى.. ما شاء الله .. أصبح دخلنا اثنين
واربعين جنيها في الشهر.. واستطعنا ان تنتقل إلى الدور العلوى من البيت
الذى كنا نسكن منه الدور الارضى.. شقة مشمسة منيرة.. تشرح الصدر..
بحرى قبلى..

وازداد ايمانى بالكلمة المطبوعة.. ورفعت المبلغ الذى ادفعه لعبد المنعم
بائع الصحف، إلى سبعة قروش، نظير قراءة كل الكتب الشهرية وغير
الشهرية، التى يبيعها، علاوة على قراءة الصحف والمجلات..

ومر عامان ونحن نرفل في حياة سعيدة مطمئنة.. ورغم ان سميرة تعمل
معى في نفس الشركة، فاننى لم أكن التقى بها خلال ساعات العمل.. كان
مكتبها في مبنى آخر تابع للشركة، غير المبنى الذى يقع فيه مكتب مخدمى
السيد مرسى عبدالعزيز.. وكانت مواعيد عملها غير مواعيد عملى.. انما
كنت التقى بها وباختها في البيت بعد العودة من العمل، ونقضى معاً
ساعات طويلة حلوة، كل منا يقص على الآخرين ما صادفه في يومه..

وسميرة سعيدة.. وسعادتها تزداد يوماً بعد يوم.. حتى خيل إلى انها
تزغرد دائماً.. في عينيها زغردة.. وفوق كل خد زغردة.. وضحكاتهما
زغاريد.. وابن عمها لا يزال يلح في خطبتها.. انه يحبها المسكين.. وربما
كانت هي الأخرى تحبه.. ولكنها تحب العمل.. وتحب حريتها.. أكثر مما
تحبه..

ثم ..

ثم بدأت الزغاريد تخفت في عيني سميرة، وتختفى من فوق وجنتيها..
وبدأت ألحظ عليها وجوماً متصلاً.. لم تعد تشاركنا حديث المساء.. لم تعد
تضحك.. لم تعد تأكل.. وأصبحت تذهب إلى عملها في الصباح كأنها تحمل
عبئاً ثقيلاً تجر من تحته قدميها.. وتعود في المساء أكثر اعياء وانهياء..
وهي تذبل.. وتذبل.. وتزداد هزالاً.. ثم بدأت تنسابها نوبات اغماء في
مكتبها.. وتصحتها مراراً أن تذهب إلى طبيب الشركة.. وربما كانت تذهب
إليه، أو لا تذهب.. ولكنها لا تزال تزداد هزالاً، ونوبات الاغماء تعاودها..
واغمى عليها مرة وهي في البيت، فأسرعت إلى طبيب الشركة، وعدت به..

وفحصها.. ثم طلب منا جميعاً ان نخرج من الغرفة.. واختلى بها طويلاً، ثم خرج الينا، وانتحى بى جانباً، وهمس فى اذنى بصوت حزين، كأنه ينعيها إلى:

— انها حامل ..

انها لا تزال عذراء ..

ولكنها حامل ..

وبهت .. أحسست بالغرفة تدور بى.. رأسى إلى أسفل وقدمى ملتصقتان بالسقف.. ولا أدرى كيف خرج الطبيب، ولا متى.. ولكن الدنيا ظلت تدور بى.. وأنا احاول جهدى ان اوقف دورانها، وان اتمالك اعصابى.. وان افكر..

وأنا رجل بسيط.. مسالم.. لا أستطيع ان افكر فى القتل، أو فى الثأر.. لم يخطر على بالى لحظة واحدة ان اقتل سميرة، أو الرجل الذى خدعها.. كل ما خطر لى هو كيف ادارى قضيتها.. وأصبح غلظتها.. وحاولت ان استعيد كل الكلمات المطبوعة التى قرأتها، لعل أجد فيها ما يرشدنى إلى الحل..

وزوجتى تخطط على صدرها وتولول.. بنتى.. يا خسارتك يا بنتى.. كان الموت اهون يا بنتى..

وابنتى فاطمة بجانبها تبكى فى صمت..

وطلبت منهما ان يسكتا حتى لا تنتشر الفضيحة بين الجيران.. اسكتا.. وصفعت زوجتى صفعة قوية.. فسكتت..

ودخلت إلى سميرة وجلست بجانب فراشها يومين متتاليين وأنا اتوسل اليها ان تقول لى اسم الرجل الذى خدعها.. قولى يا بنتى.. لا تخافى.. لن اقتله.. انت تعلمين اننى لا أستطيع ان اقتل فرخة.. فقط سأحاول ان اساعدك.. ربما هداه الله ودارى قضيتك..

واخيراً نطقت ..

انه الاستاذ عزت مراد ..

واقطعت الدهشة قلبى .. انه مدير فرع الشركة.. وهو غنى، يملك سيارة شفروليه موديل ٥٨.. وهو من عائلة كبيرة.. انه ليس من طبقتنا.. فماذا أغراه ببنت مسكينة ضعيفة مثل سميرة..

وذهبت اليه مباشرة، ووقفت أمامه ذليلاً منكسراً، لا أعرف كيف أبداه الكلام.. ورفق إلى وجهه السلام، وتحركت شفتاه الموردتان من تحت شاربته الأصفر الأتيق، وقال وهو يبتسم:

— خير يا أسطى نعمان؟

قلت في ذل:

— بنتى سميرة يا بيه..

قال وقد بدأت عيناه تضطربان:

— مالها..

قلت:

— الله يستر عرضك يا عزت بيه.. استرها وحياة النبي.. انت برضه

ابن ناس.. و..

وصاح في وجهي:

— مش فاهم..

قلت وأنا أكاد أبكى:

— دى حامل يا سعادة البيه..

وعاد يصرخ:

— وأنا مالى.. ايه دخلنى فى الموضوع ده.. يمكن بتلم اعانة علشان

تولدها!

واحتملت وقاحته، وقلت:

— دى قالت لى على كل حاجة.. استرها، يستر ك ربتا.. انت

مايخلصكش تسيبها فى الحالة دى..

وصرخ صرخة هائلة:

— انت مجنون يا راجل انت.. امشى اطلع بره..

وخرجت من مكتب السافل، المجرم، البدنى.. عرفت ان لا أمل من

مخاطبة ضميره.. فخاطبت مدير الشركة، السيد مرسى عبدالعزيز..

وصدقنى المدير.. انه رجل طيب ورع.. وطلب منى ان أقدم له الاتهام

مكتوباً.. وقدمته.. فأصدر قراراً بوقف المجرم عن العمل، إلى حين انتهاء

التحقيق..

وانتشرت القصة بين كل موظفى الشركة.. وتدخل الرؤساء ومحامى

الشركة.. وسميرة مريضة، تزداد ضعفاً وهزالاً..

ثم ..

أتدرون ماذا حدث؟

قدم المجرم عزت مراد بلاغاً إلى النائب العام يتهمنى أنا وابنتى سميرة بالتشهير به، ومحاولة إلصاق تهمة كاذبة به..

هو الذى لجأ إلى النيابة..

لا أنا

تصوروا.. إلى هذا الحد تبلغ الصفاقة، والوقاحة، والاجرام..

واستدعتنى النيابة للتحقيق.. ورويت القصة كما عرفتُها أمام المحقق..

ثم استدعوا ابنتى سميرة، وحملتها حملاً اليهم، لعل النيابة ترد إليها شرفها..

وقالت سميرة ان عزت خدعها.. وغرر بها وصحبها إلى بيته، وقدم لها

كوباً من الشاي مذاب فيه مخدر ولم تدرب بعدها، ماذا حدث..

ولكنها كانت تكذب..

حتى أنا شعرت وأنا اسمعها، ان قصة الشاي المسموم، قصة كاذبة

وربما اضططرت سميرة إلى الكسب لأنها خجلت من ان تصرح بأنها

استسلمت بإرادتها.. وهى تعلم ان سنّها فوق العشرين، والقانون لا يعاقب

الرجل الذى ينال فتاة فوق العشرين، بإرادتها.

ولكن لماذا لجأت إلى قصة الشاي المسموم؟

ان هناك ما هو أخطر من الشاي المسموم..

هناك الكلام المسموم..

والوعود الزائفة..

والضعف البشرى نفسه..

ان كل هذا يمكن استغلاله فى ارتكاب جريمة، اكثّر مما يمكن استغلال

الشاي المسموم..

ولم يجد المحقق دليلاً على قصة سميرة..

وثبتت علينا تهمة التشهير بالاستاذ عزت مراد.. وأصبحنا نتوسل

اليه.. ونجرب وراءه.. ونوسط لديه الأصدقاء.. حتى يتنازل عن دعواه، فلا

نقدم إلى المحاكمة..

تصوروا..

بدلاً من أن اطالبه برد شرف ابنتى.. اصبحت اتوسل اليه ان يعفو عني،
وعن ابنتى، لأننا تجرأنا على المطالبة بحقنا.. وحياتك يا بيه.. أبوس ايدك..
ده احنا ناس غلابة..

وطبعاً ، اضطر مدير الشركة السيد مرسى عبدالعزيز، إلى اعادته إلى
العمل.. مع الاعتذار الكافى..

وسميرة لا تزال مريضة، وتزداد هزالاً وضعفاً..
وابن عمها يحبها.. وقد سمع بالقصة.. ورغم ذلك يلح ان يتزوجها..
وسميرة ترفض.. ثم قالت له وهو لا يزال يلح عليها:
— انا حامل ..

قال :

— ولو .. انتى لحمى ودمى .. واللى اعتدى عليكى عليكى اعتسدى على..
وفضيحتك فضيحتى.. واحنا الاثنين حانذارىها سوا .. حائنسى..
ولكنها اصرت على الرفض ..
ثم ..
ثم ماتت ..



أتدرون ماذا حدث؟

لقد أخرجت ابنتى فاطمة من عملها.. حتى لا تموت هى الأخرى..
وحبستها فى البيت.. كأمى.. واختى.. وزوجتى.. وانتقلنا إلى الدور الأرضى
من المنزل الذى نسكنه..

أتدرون أيضاً؟!

لم اعد أقرأ الصحف والمجلات..





خطاب من موسكو

أنا لست جميلة ..
وربما لو رأيتنى لأعتقدت انى جميلة ..
ولكن رأيك لا يهم، المهم هو رأيى أنسا فى
نفسى .. وأنا اعتقد انى لست جميلة ..
وقد صحبنى هذا الاعتقاد طول عمرى،
وأصبحت أوّمن بأن ليس هناك شاب يرضى بى
أو يتلفه على ..



واحبيت ..

احبيت مرتين ..

وفى كلتا المرتين كان حباً صامتاً، اطويه فى قلبى، واخفيه تحت جفونى،
واحرم عليه ايتسامتى .. ولم أجروّ فى المرتين على ان اجعل من حبنى حقيقة
اعيش فيها .. احتفظت به وهما .. وخيالاً .. وليس أكثر من خيال ..
والذى احببته فى كل من المرتين لم يشعر بحبنى .. لم ادعه يشعر به .. انما
كان كل ما يشعر به نحوى هو الصداقة .. مجرد صداقة .. وكل منهما كان
يصل بصداقته إلى حد ان يروى لى مغامراته مع غيرى من البنات ، أو يروى
لى قصة حبه لبنت أخرى .. فاستمع له .. واتعذب، واطل اتتبعه فى حياته
بقلبى المسكين إلى أن أراه يتزوج غيرى .. فأبكى وحيدة فى ليلة زفافه ..
ثم ..

ثم قابلت كمال فى حفلة صغيرة اقيمت فى بيت احدى صديقاتى ..
ولا أدري كيف وجدته جالساً بجانبى يروى لى قصة حياته، ويبلغنى انه
مسافر غداً إلى موسكو فى بعثة دراسية .. ربما كان فى وجهى شىء يجذب
الشبان إلى صداقتى، ويصدهم عن حبنى .. لا بأس .. شىء خير من
لا شىء .. وإذا لم يكن الحب من نصيبى، فانى احمد الله على الصداقة ..
وظل كمال بجانبى طول الحفلة، ثم فوجئت به قبل ان انصرف يسألنى:
— اقدر أيعت لك جوابات بعدما أسألك؟

ونظرت إليه كأني أبحث في وجهه عن سر هذا الاهتمام الزائد المفاجيء،
بى.. ثم قلت بلامبالاة:

— ما فيش مانع ..

وسافر كمال في اليوم التالي ..

ولم يمض أكثر من اسبوعين حتى تسلمت أول رسالة منه.. ودهشت..
لم أكن أعتقد انه كان يعنى ما يقول عندما طلب منى ان اسمح له
بمراسلتى.. كنت اظنه يجاملنى.. كنت اظنه يتكلم مجرد كلام، لعله قاله
لألف فتاة قبل سفره.. ولكنه لا يستطيع ان يرسل ألف فتاة.. لا بد انه
اختصنى انا وحدى بخطابه هذا..

وخفق قلبي من الفرح..

كانت خفقة فرح.. وليست خفقة حب..

وفضضت الخطاب، ورمشة الفرح تسرى في يدي.. وقرأت.. انه يصف
لى رحلته إلى موسكو.. وحياته هناك.. ويصف المدينة.. ولا شيء أكثر من
هذا.. ويرجوني ان ارد عليه..

انه خطاب اقرب إلى خطابات التعارف التي يرسلها قراء الصحف
بعضهم إلى بعض، دون ان يعرفوا بعضهم بعضا..

لا بأس ..

هذا نصيبي من الدنيا ..

الصداقة .. الصداقة فقط ..

وامسكت بقلمى، وكتبت له خطاباً.. مجرد خطاب إلى صديق، حشوته
بكثير من النصائح، كأني أخته أو أمه..

ووصلنى الرد بعد اسبوع واحد.. كأنه كتبه في نفس اليوم الذي تلقى
فيه خطابى.. المسكين.. انه لا يجد شيئاً يسليه عن غربته في موسكو إلا أن
يكتب لى خطاباً..

وتوالت خطاباتنا ..

ولم تكن تحمل أكثر من كلمات الصداقة.. ولكنى بدأت أحس فيما يكتبه
شيئاً أبعد من الصداقة.. شيء وراء الكلمات.. شيء لا يفصح عنه

بصراحة .. شيء كالحب .. ربما كنت واهمة .. أو ربما كانت غربته قد استبدت به إلى حد أن أصيب بمرض « الحنين إلى الوطن » .. ولم يجد ما ينفس به عن حنينه إلا هذه الخطابات الطويلة، وهذه الكلمات الرقيقة .. كأنه يعتبرنى وطنه الذى يحن إليه .. نعم .. لا بد انه هذا .. فهو يحدثنى كثيراً عن ضيقه بغربته، وضيقه بموسكو .. بل إنه يفكر فى تغيير بعثته إلى لندن بدلاً من موسكو، ويفكر أحياناً أخرى فى الاستغناء عن البعثة أصلاً، والعودة إلى القاهرة ..

وكلماته تزداد رقة، وتزداد تعبيراً عن شيء أبعد من مجرد الصداقة .. وأنا حريصة على ألا اندفع وراء هذا الوهم الذى يطل على من خطباته .. كنت أكذب نفسى .. لا، ليس هذا حباً .. انه لا يمكن أن يحببنى .. وكنت أصر فى ردى عليه ان أظل صديقة، مجرد صديقة .. كنت أحرص على ان اختار كلمات لا تحمل أكثر من معناها اللفظى .. ولكنى مع الأيام بدأت أحب الكتابة إليه .. وبدأت أحب انتظار رسائله .. ثم ..

ثم وقعت المفاجأة ..

خطاب سريع منه يقول لى فيه: « أحبك .. أحبك .. صدقيني انى أحبك .. لم أعد أحتمل ان أخفى حبنى أكثر من هذا .. وقد قررت أن أعود إلى القاهرة، لأخطبك .. لنتزوج .. وإنى فى انتظار برقية منك بالموافقة .. سأنتظر برقيتك فى كل يوم .. فى كل ساعة .. فى كل دقيقة .. إلى أن تصلنى .. و .. » وكنت أجن من الفرحة ..

إنها أول كلمة حب أسمعها من رجل ..

إنه أول رجل يتقدم لخطبتى ..

ولم أفكر ساعتها فى كيف استطاع أن يحببنى وهو لم يلتق بى إلا مرة واحدة قبل سفره .. لم أفكر فى شيء .. إنى فرحة .. الفرحة فى رأسى .. وفى قلبى .. أكاد أطير من الفرحة ..

ولم أتردد ..

أرسلت له برقية من كلمة واحدة « موافقة » ..

أرسلتها قبل أن أستشير أهلى .. بل قبل أن أستشير نفسى .. ثم درت
أعلن الخبر إلى صديقاتى .. كأنى أعلنهن بأنى أصبحت بنتا مثلهن .. ولست
أقل منهن جمالا .. ولى حبيب .. وحبيبي سيأتى من آخر الدنيا ليخطبنى ..
وفرحت معى صديقاتى .. إنهن يحبيننى .. وكل شىء فى بيتسم من
الفرحة ، ويكاد يزغرد .. وشفتاى ، ووجنتاى ، ومشيتى ، ولفتاى ، وهزات
أصابعى ..

ولكن ..

أهلى يعارضون .. إنه لا يعجبهم .. ليس من عائلة كبيرة .. ولا غنيا .. ولا
يعرفون عنه شيئا .. ولا أنا أعرف عنه شيئا ..
ولكنه يحببنى ..

يريدنى ..

ألا يكفى هذا ؟ !

ووقفت فى وجه أهلى ، دفاعا عن فرحتى .. دفاعا عن الثقة التى أعادها
كمال إلى نفسى .. ثقته فى أنى فتاة مرغوبة ، يريد لها شاب ..
وصرخت .. وهددت ..

وجاء كمال من موسكو .. واستقبلته بفرحتى .. ولم أر فيه إلا فرحتى ..
ثم شغلنا نحن الاثنين معارضة أهلى فى زواجنا ..
ولم يكن شىء فى الدنيا يستطيع أن يقف فى وجه هذا الزواج .. كنت
مستعدة أن ارتكب جريمة .. أن انتحر .. أن أهرب .. أى شىء لاتزوج كمال ..
وأخيرا ..

رضخ أهلى ..

وأعلنت خطبتي ، والزغاريد تملأ أذنى ، وتقفز فوق وجنتى ..
ثم هدا كل شىء حولنا أنا وكمال .. وبدأنا نلتفت أحدا إلى الآخر ، ويرى
أحدا الآخر ..

وفجأة وجدتني أسأل نفسى : هل أحبه ؟
وجاوبت أن أطرد هذا السؤال من رأسى ، فلم يكن معقولا .. بعد كل هذا ..
أن أشك فى حبي له .. ولكن السؤال يلح على .. ويطاردنى ..

وبدأت أرقب نفسي، وعواطفى..

إن لمسة يده لا تثير في شيئا.. انى أضع يدي في يده، كأنى اضعها في يد صديق.. وأحاول أن أضغط عليها، ويحاول هو الآخر أن يضغط على يدي.. ولكننا لا نعتصر شيئا من هذا الضغط، أكثر من الصداقة.

وقبلته.. ان قبلته لا تنسينى نفسى.. لا انتشى بها.. انى أقبله وعقلي صاح يتساءل: هل أحبه؟! بل انى اتساءل أحيانا وأنا بين شفقتيه: متى تنتهى هذه القبله؟! وقد حاولنا في قبلاتنا كثيراً.. حاولنا ان نجمع عواطفنا فيها.. وان نطيلها.. وان نعتصر من شفاهنا شيئا.. ولكن.. لا شيء.. لا شيء..

وأخيراً، يئسنا..

عرف كل منا عواطفه نحو الآخر.

واحاطنا شعور كالهواء البارد.. وكل منا يحاول ان يفصح للآخر عما في نفسه، ثم لا يستطيع.. كأن من الصعب على كلينا ان يعترف بالحقيقة.. ان أقول له، أو يقول لى، إنه ليس الحب..

وبدأ كمال يغيب عنى طويلاً..

وبدأت لا أنتظره..

ثم بدأت أرى منه طبعاً لا أستطيع أن أتحملها.. وتصرفات صغيرة تثيرنى.. الطريقة التى يأكل بها.. ذوقه في اختيار أربطة عنقه.. و.. و.. عشرات الأشياء الصغيرة..

ولعله كان يجد في نفس الشيء..

وأخيراً، قررت بينى وبين نفسي، انه لا يصلح لى..

لا أستطيع أن أتزوجه..

وربما اتخذ هو الآخر نفس القرار، في نفس الوقت..

كيف يعلن كل منا قراره للآخر؟

هل ننتظر إلى أن نتشاجر سوياً، ونجعل من فسخ خطبتنا مأساة تبيكنا.. لماذا لا يتم كل شيء ببساطة وهدوء، ونبقى أصدقاء؟! وقلت له وأنا أستعين بكل أعصابى:

— تيجي نسيب بعض يا كمال؟
وقال في تردد كأنه يخشى أن يجرحتي :
— أنتي عايزه كده!
قلت :

— أنا عايزة .. وأنت كمان عايز!
قال وهو يبتسم ابتسامة خجلة:
— زي ما يعجبك!
وقسحنا خطبتنا في هدوء..
ولم أندم .. ولم أغضب منه..
كان كل شيء واضحاً في عقلي.. ان هذه الخطبة دفعتنا إليها غريته في
موسكو.. ودفعتني إليها أنه أول رجل تقدم لخطبتي في الوقت الذي كنت
أشعر فيه بأنني لست مرغوبة من الرجال.. لم أندم.. ورغم ذلك بكيت..
بكيت كثيراً..
وأصبح نصيبي من كمال، هو نصيبي من كل الشبان..
وعاد إلى موسكو..
وعاد يرسل إلي الخطابات ..







أنا مصور فوتوغرافي ..
بدأت هاوياً ، وانتهيت محترفاً ..
ولا أدري متى بدأت هوايتي .. بل إنني
لا أذكر يوماً من عمري لم أحمل فيه بين يدي
آلة تصوير .. فقد كان والدي من هواة
التصوير أيضاً ، وكنت وأنا صغير أجري
لأخطف آلة التصوير ، وأضمها إلى صدري فرحاً ضاحكاً كأنني أضم
كل ما في الدنيا .. وكنت إذا بكيت لا أسكت إلا إذا جاءت لي والديتي بآلة
التصوير .. وإذا أرادوا أن يسقوني «شربة» أو دواء مرأ ، تحايلوا عليّ
بإعطائي آلة التصوير .. وعندما أصبحت في العاشرة من عمري ،
ونلت الشهادة الابتدائية ، أهداني والدي آلة تصوير .. كاميرا !
ومن يومها وأنا أرى الدنيا وأرى الناس ، من خلال عدسة الكاميرا ..
لم يكن ما أراه بعيني يصلح للحكم على الأشياء .. كان الحكم دائماً
لعدسة الكاميرا .. أي أنني لو رأيت رجلاً بعيني لا أستطيع أن أحكم عليه ..
لا أستطيع أن أحبه أو أكرهه .. لا أستطيع أن أحكم على أخلاقه .. وإنما كل
ما يحدث لي هو أن يثير هذا الرجل اهتمامي أو لا يثيره .. فإذا أثار اهتمامي
صوبت إليه العدسة والتقطت صورته .. ثم انظر في الصورة ، ومن خلالها
أستطيع أن أحكم عليه .. أستطيع أن أعرف أخلاقه .. أستطيع أن أحبه أو
أكرهه ..
وأنت تعرف أن عدسة الكاميرا تعمل بالضبط بنفس الطريقة التي تعمل
بها عين الإنسان .. أي أن تركيبها الميكانيكي هو نفسه التركيب
الفسولوجي لعين الإنسان ..
ورغم ذلك ..
فإن هناك فرقاً بين ما تلتقطه عين الإنسان ، وما تلتقطه عدسة
الكاميرا .. فالمنظر الطبيعي الذي يبدو في الصورة الفوتوغرافية ، تجده
مختلفاً عن نفس المنظر إذا وقفت أمامه وتطلعت إليه بعينيك المجردتين ..

إن في الصورة تفاصيل كثيرة لم تلتقطها عيناك ، وفيها تكامل وانسجام لا تستطيع أن تحس بهما بعينيك ، ولكن عدسة الكاميرا أحست بهما .. كذلك وجوه الناس .. إن الوجه الذي تراه عيناك ، يختلف عن نفس الوجه إذا التقطته آلة التصوير .. قد ترى بعينيك وجه فتاة في غاية الجمال ، ولكنك إذا التقطتها بالعدسة وجدتتها في الصورة أقل جمالا .. بل قد لا تكون جميلة أبدا .. وهذا الاختلاف هو الذى أدى إلى تقسيم وجوه البشر إلى : وجوه « فوتوجينيك » ووجوه « ليست فوتوجينيك » !

وهذا الخلاف بين عين الكاميرا ، وعين الإنسان ، قد يبدو ضئيلا بالنسبة للرجل العادى ، ولكنه بالنسبة لفنان مثل يبدو كبيرا .. كبيرا جدا !! وقد بدأ هذا الخلاف يحيرنى منذ مدة طويلة ..

كنت أسأل نفسى : ما الذى يجعل بعض الوجوه فوتوجينيك والبعض الآخر ليس فوتوجينيك ؟ !

من الناحية العلمية يستطيع أى أخصائى في التصوير أن يقول لك أن الظلال التى تلقيها ملامح الوجه هى التى تؤثر في مدى صلاحيته للتصوير .. أى قد يكون وجهك جميلا ، ولكن الظل الذى يلقيه أنفك على وجنتيك يجعل وجهك يبدو في الصورة مسطحاً ، فيصبح وجهك ليس فوتوجينيكياً !!

ولكن هذا الكلام العلمى ليس صحيحاً على إطلاقه ، فقد أجريت مئات التجارب على ظلال الوجوه ، ورغم ذلك ظلت هناك وجوه فوتوجينيك ، ووجوه غير فوتوجينيك ، حتى لو تساوت الظلال بينها ! ووجدت نفسى بعد قليل أتساءل :

أيهما أصدق .. عين الإنسان أم عين الكاميرا ؟ !
إن كلا منهما يرى نفس الشيء رؤية مختلفة ، فأيهما أصدق في رؤياه .. هل ما نراه بأعيننا هو الحقيقة ، أم ما نراه عين الكاميرا ؟
وحيرنى السؤال ..

عشت شهوراً طويلة حائراً ..

ثم ..

وجدت الاكتشاف العلمى الضخم .. وجدت الجواب ..

إن عين الكاميرا أصدق من عين الإنسان !

لا تندم ..

ولكن ، اسألنى : لماذا ؟

والسألة بسيطة ..

إن عين الإنسان تتعرض لمؤثرات كثيرة .. تتعرض للعاطفة .. فإن
غواطفك تؤثر فى عينيك ، فترى الشخص الذى تكرمه دميما .. وترى
الشخص الذى تحبه جميلا ، وبيت الشعر الذى يقول « وعين الرضا عن
كل عيب كليلة ، ولكن عين السخط تبدي المساويا » ، ليس مجرد بيت شعر ،
إنه نظرية علمية !!

كما أن عين الإنسان تتعرض لمؤثرات الجنس ، فالرجل قد يرى المرأة
الجميلة مجرد أنها امرأة ، أو لأنه يشتهيها .. كما تتعرض لمقتضيات
المصلحة الخاصة كما يصورها لك العقل .. فإذا كنت محتاجا لرجل فإنك
غالبا ما تراه إنسانا سمحا ينطق وجهه بخفة الدم حين أنه قد يكون سمجا
ثقيل الدم ، و .. و ..

هذه هى عين الإنسان ..

عين لا يمكن أن تكون صادقة .. لأنها عين ليست منزهة ، وليست
محايدة ، إنما هى عين أسيرة بين قلب الإنسان وعقله .. أسيرة الأهواء !
ولكن ..

عين الكاميرا ليست كذلك ..

إنها عين نزيهة .. محايدة .. متحررة من الأهواء .. عين لا تخضع
لعاطفة ، ولا لشهوة جنسية ، ولا لمصلحة خاصة ..

إنها عين صادقة ..

إن ما تراه الكاميرا حقيقة قاطعة ..

وما يراه الإنسان حقيقة مشكوك فيها ..

ولكن ..

هناك سؤال أعمق .. وأخطر !!

هل الفرق بين ما تراه عين الإنسان ، وما تراه عين الكاميرا ، هو مجرد فرق في الشكل .. في المظهر الخارجى .. أى هل كان الفرق ينحصر في أن الوجه الذى تراه عين الإنسان جميلا ، قد يبدو في الصورة الفوتوغرافية أقل جمالا ؟

أم هو فرق في الحقيقة التى تختفى خلف الوجه .. حقيقة الشخص نفسه .. أخلاقه .. طباعه .. نياته ؟

وبمعنى آخر ؟

هل تلتقط الكاميرا صورة الوجه فقط ، أم تلتقط مع الوجه صورة الأخلاق والنيات ؟؟

سؤال خطير !!

ولكنى وجدت الجواب ..

والجواب هو أن الكاميرا تلتقط أيضا صورة الأعماق .. صورة أخلاق كل من يقف أمامها .. فأنت .. أو على الأصح ، أنا .. أستطيع أن أعرف أخلاق الشخص من صورته الفوتوغرافية .. بل إنى لا أطمئن إلى شخص إلا بعد أن ألتقط صورته وأدقق فيها لأعرف أخلاقه .. ونياته !!

وكثيرا .. كثيرا جدا .. يحدث أن تلتقى بشخص وترتاح إليه ، وتطمئن إلى نياته ، ولكنك إذا التقطت صورته ، ودققت النظر فيها ، وجدت ملامحه تنطق بالخبث ، والجشع ، وسوء النية .. وعليك في هذه الحالة ، أن تصدق عين الكاميرا ، ولا تصدق عينيك ، لأن عينى الإنسان — كما قلت لك مشكوك في صدقها ..

وأصبحت هذه نظريتى في الحياة ..

أرى الناس والأشياء من خلال عدسة الكاميرا ، وأحكم على الناس والأشياء كما تحكم عليهم الكاميرا .. حتى أنى قررت يوما أن أشتري سيارة مستعملة وكان صاحبها يبدو صادقا طيبا حسن النية ، ولكنى رغم إحساسى بصدقه وطيبته صممت قبل أن أشتري السيارة على أن ألتقط له صورة .. ودققت النظر في الصورة، فإذا به يبدو خبيثا ، كاذبا ، سييء النية، وكان وجهه طبعاً ليس «فوتوجينيك» .. ولم أشتري السيارة .. وحمدت

الله لأنى لم أشتريها ، فقد اشتراها صديق لى ، وتبين له ، بعد أن اشتراها أن
« الأكس » مكسور وملحوم .. وضاع عليه الثمن الذى دفعه !!
- وكنت سعيداً باكتشافى ..

كنت أسير فى الحياة ، وفى يدي عدسة سحرية تطلعنى على خبايا
النفوس .. عدسة الكاميرا !!
إلى أن التقيت بسعاد ..

ورأيت سعاد من النظرة الأولى .. جميلة .. رائعة .. وجهها يتعلق
بالبراءة .. وعيناها تشعان بذكاء طيب هادىء .. وابتسامتها تطرق قلبك
بحنان غريب .. وشعرها منسدل على كتفها فى راحة ، كأنه منذ ولدت نائم
فى مكانه لم يوقظه أحد ..

رأيتها كما أرى حلما عشت فيه عمرى كله ..
ولم تسنح لى فرصة لتصويرها لأسابيع طويلة .. ولكنى لم أكن فى
حاجة إلى تصويرها .. كانت صورتها تزداد وضوحاً فى عيني يوماً بعد
يوم .. وحديثها الشيق يقودنى إلى أعماقها .. أعماق من النور .. نور ومن
تحتة نور ..
وأحببتها ..

أحببتها إلى حد أنى كنت أنسى الكاميرا ، وأنا بجانبها .. نعم .. إلى هذا
الحد أحببتها !
ثم ..

التقطت لها صورة .. بعين الكاميرا .. ولم ألتقط صورتها لأنى كنت
أريد أن أعرفها أكثر .. لا .. فقد كنت واثقاً من أنى لست فى حاجة لأعرفها
أكثر ..

وذهبت إلى معمل ، وحمضت الصورة ، ثم أضأت النور ، ونظرت إليها
وأنا مطمئن النفس .. واثق من النتيجة ..
ولكن ..

ما هذا ؟!

إنها ليست فوتوجينيك !!

إن وجهها يبدو مسطحاً .. باهتاً .. وابتسامتها تبدو مفتعلة .. وفي عينيها خبث .. وبشرتها تبدو خشنة كأنها بشرة فتاة أنهكتها التجارب .. لا .. لا يمكن .. لا بد أن شيئاً حدث وأنا ألتقط لها هذه الصورة .. والتقطت لها صورة أخرى .. وثانية .. وثالثة .. عشرات الصور .. في أوضاع مختلفة .. ومن زوايا مختلفة .. وعكست عليها النور من جميع الجهات .. وصورتها دون أن تدري .. وصورتها وهي تدري .. و .. والنتيجة واحدة ..

إنها ليست فوتوجينيك ..
إن عين الكاميرا لا تريد أن ترحمها ..
عين الكاميرا لا تريد أن تكذب ..
ولكن ، من قال إن عين الكاميرا أصدق من عين الإنسان ؟
ما هذه النظرية السخيفة التي ابتكرتها ، وأمنت بها !
كيف أجعل هذه الآلة الصماء - الكاميرا - تتحكم في منطقي ، وفي حكمي على الأشياء والناس ، ثم أتركها تتحكم الآن في عواطفى ..
لا ..

هذه نظرية جوفاء ..
هذه سخافة ..
إنى أحب سعاد .. والحب هو الحقيقة .. الحب هو الصدق .. الحب هو حياتى !!

وهجرت الكاميرا ..
تركتها ..
لم أعد أرى الدنيا من خلال عدستها ، بل لم أعد ألتقط بها صوراً ..
تركت مهنة التصوير الفوتوغرافى ..
كل ما فعلته قبل أن أهجر الكاميرا والتصوير .. هو أنى جئت بإحدى صور سعاد ، وأجريت فيها بيدي رتوشاً كثيرة ، حتى بدت جميلة .. جميلة جداً ..

وأهديتها الصورة ذات الـرتوش ..

الصورة المزورة ..

ثم تزوجتها ..

أتدري ماذا حدث ؟

بعد سنة ، طلقت سعاد ..

لقد كانت عين الكاميرا ، أصدق من عين الإنسان ..

وعدت إلى الكاميرا ..

● ● ●



قصة الجيل



لم أكن قد زرت بلدة « سيرميوني » من
قبل ، ولا سمعت باسمها ، رغم كثرة رحلاتي
إلى إيطاليا .. ولكنني وجدت نفسي فيها
مصادفة وأنا أقطع الطريق بالسيارة من
فينيسيا إلى ميلانو ..

إنها قطعة من الجبل ممتدة داخل بحيرة
« لاجو ديلاجاردا » .. والجبل تغطيه أشجار الصنوبر العالية .. وظلال
الأشجار تستحم في مياه البحيرة .. والبلدة هادئة .. وشوارعها ضيقة عتيقة
كأنها صفحة من التاريخ ، وكل شيء يبتسم في دعة ، البحيرة تهمس ،
والشجر يهمس ، والناس يهمسون .

وأحسست بشيء يقيدني إلى سيرميوني .. ربما كان حاجتي إلى الراحة
والهدوء .. ربما كانت القمم العالية التي تحيط بي .. ربما كانت حلاوة
المفاجأة وأنا ألتقي بقطعة من الجنة .

وركنت سيارتي ، وحجزت لنفسى حجرة في فندق أقيم فوق قمة الجبل
ربما كان أفخم فنادق البلدة .. ثم نزلت أطوف بالشوارع الضيقة المرصوفة
بقطع الأحجار الصغيرة .. والهدوء يسرى في أعصابي .. وابتسامة كبيرة
تملأ قلبي .. ثم جلست في مطعم صغير .. وشمس الربيع تغمرني .. والبحيرة
تحت أقدامى .. والجبل الأخضر يطل علي .

كنت سعيدا .. سعيدا .. لا أريد شيئا أكثر من ذلك .

والمطعم الصغير ليس معدا للسياح .. إن كل زبائنه من الإيطاليين ..
وكلهم من الطبقة المتوسطة البسيطة .. وأخذت أدير عيني بينهم كأنني
أتعرف على زملائي في الجنة .. زملائي الملائكة .

وسقطت عيناى على فتاة جالسة مع شاب على مائدة مجاورة .. الفتاة
فيها كل الجمال الإيطالي .. العينان السمران الواسعتان .. والحاجبان
الكثيفان والشفاه الواسعة الغليظة .. والقامة القصيرة الممتلئة .. وكانت

تلبس البنطلون والبلوز.. ولفت نظري فيها جلستها.. إنها تجلس غاطسة في المقعد.. كأنها تحتوى به.. أو كأنها تكاد تسقط من فوقه.

أما الشاب الذى معها فكان أشقر الشعر.. صارم التقاطيع.. فى نظراته غطرسية.. قوى العضلات.. قوى جدا.. وكانت عيناه مسطتين على وجه الفتاة دائما.. لا يرفعهما عنها.. وبين شفثيه ابتسامة فيها إصرار، كأنه يحاول أن يسلب إرادتها بابتسامته.. وهى تتجاهل نظراته حيناً.. وتغطس فى مقعدها أكثر.

وكان يبدو أنهما لا يتحدثان لغة واحدة.. إنى اسمعه يتحدث الألمانية، وأسمعها تتحدث الإيطالية.. وكل منهما لا يعرف لغة الآخر، فيحاولان التفاهم بالإشارات ويضع كلمات ممزقة.

وابتسمت عينائى، وأنا أتخيل الحديث الذى يمكن أن يدور بينهما والقصة التى يمكن أن تجمعهما.

وقبل أن أدير وجهى.. رفعت الفتاة عينيهما والتقت بعينى..

وأرخيت عينى بسرعة..

ولكن جلستى كانت فى مواجهتها.. ولم أكن أستطيع أن أتفادى الالتقاء بعينيهما مرة أخرى.

ثم ..

ثم خيل لى أنها تبتسم لى.. ابتسامة سريعة، ثم عادت بعينيهما إلى الشاب الألماني الذى يجلس معها وظهره لى..

ولم أرد ابتسامتها..

إنى لا أريد..

كل ما أريده هو الراحة والهدوء..

ولكنها ابتسمت لى مرة أخرى، ابتسامة واسعة.. ثم غطست فى مقعدها أكثر..

وتجاهلت أيضا هذه الابتسامة.

ولكنى لم أستطع أن أتجاهل الابتسامة الثالثة.. ورغما عني، ارتفعت إلى شفثى ابتسامة حائرة متردة.

وفجأة قام الرجل الألماني من جانبها واختفى داخل المطعم.. والتفتت الفتاة إلى بكل جسمها، وابتسامتها تملأ وجهها.

وتعجبت .. وخفت .. خفت على هدوئي وراحتي.. ولكن حيائي منعني من أن أتجاهل ابتسامتها.. فابتسمت لها، وظلت عيناها السمران معلقين فوق وجهي، وفيهما نظرة عجيبة.. ليست نظرة إعجاب على كل حال.. ووجدت نفسي - تحت إلحاح هذه النظرة - أحرك شفتي وأقول كلاما.. أي كلام.. وتكلمت بصوت خافت، لا يمكن أن تسمعه.. ولكنها ما كادت ترى شفتي تتحركان، حتى قفزت من فوق مقعدها، وجاءت إلى مائدتي ووقفت فوق رأسي، وقالت كلاما باللغة الإيطالية لم أفهم منه شيئا.

ووقفت احتراما لها، وقلت الكلمتين الإيطاليتين اللتين أعرفهما:
— هل تتكلمين الإنجليزية؟

— لا ..

— الفرنسية؟

— يوكو (أي قليلا) ..

وبدأت أحدثها بالفرنسية.. وكان ما تعرفه منها أقل مما أعرفه من الإيطالية.. ولم يكن هناك شيء يمكن أن تقوله لي، ولكن كان يبدو أنها مصرة على أن تتحدث إلي، فظلت واقفة، تبذل مجهودا كبيرا في الاحتفاظ بابتسامتها، وتبذل مجهودا أكبر في البحث عن كلمة تقولها، ويمكن أن أفهمها..

وبعد ذلك، كان علي أن أدعوها للجلوس معي..

وبسرعة، وبلا تردد، قبلت دعوتي.. وشدت حقيبتها من فوق المائدة الأخرى التي كانت تجلس إليها.. و.. جلست بجانبى.. وأحسست بها تتنهد بمجرد أن جلست.. تتنهد في راحة.. كأنها وصلت.. ولم تجلس غاطسة في مقعدها، بل جلست معتدلة، وعيناها هادئتان.

وعرفت اسمها: ليديا.

ودار بيننا الحديث الذي يدور عادة بين غربيين لا يعرف كلاهما لغة

الآخر، وضحكننا كثيرا وهى تحاول أن تفهمنى ما تقول باللغة الإيطالية، وأنا أحاول أن أفهمها بالفرنسية.. وشعرت وهى قريبة منى أنها ليست من هذا الصنف من البنات الذى يصطاد السياح.. لم تثر فى أى رغبة فى مغامرة.. ولم تشجعنى عليها.. بالعكس.. كان كل ما فيها يثير الاحترام.. والطيبة.. وفوق صدرها صليب ذهبى صغير، تلمسه بأناملها بين الحين والحين.

وفجأة أيضا، برز الشاب الألماني من داخل المطعم. ولححت سحابة حمراء تطوف فوق وجه ليديا.. ورأيتها تتشبث بيديها فى مسندى المقعد، ثم تغطس فيه، وتميل ناحيتى كأنها تحتسى بى. ووقف الشاب الألماني ينظر إلينا بعينين باردتين كالثلج.. ثم اقترب منا فى خطوات ثابتة ووقف فوق رأسينا.. وسلط عينيه على وبين شفتيه ابتسامة لزجة لا معنى لها.

ولم استرح له.. شعرت بالتقزز منه، ورفضت أن أدعوه إلى الجلوس، أو أصافحه، ولكن ليديا رفعت إليه عينين مرتعشتين، وأطالت النظر فى جلستها نحوى كأنها تحتسى بى.. ثم التفتت إلى وقالت بصوت خفيض تقدمه لى:

— رينهارت..

وكنيت مضطرا بعد ذلك أن أصافحه وأن ادعوه إلى الجلوس، فجلس وهو يحاول أن يتودد إلى بابتسامة كبيرة، ودار بيننا حديث عجيب، بين ألماني وإيطالية وعربى، والألماني يعرف بضع كلمات إنجليزية.. والإيطالية تعرف بعض كلمات فرنسية.. والعربى - أنا - يتكلم الإنجليزية والفرنسية فلا يفهم الآخران من اللغتين شيئا.. وأراد رينهارت أن يتغلب على صعوبة الأحاديث بيننا فأخذ يعرض علينا بعض ألعاب المائدة.. ألعاب سمجة!

وحان وقت الغداء.. وطلب كل منا غداء.. وأصرت ليديا على ألا تأكل شيئا من اللحم.. وسألتها..

— لماذا ؟

قالت كأنها تتهمنى بالكفر :

— إتنا فى يوم الجمعة .. واللحم يوم الجمعة حرام !؟

ودهشت .. دهشت أن أجد فتاة ترتدى البنطلون والبلوزة .. ومتدينة إلى هذا الحد.

وبعد الغداء دعوت ليدى لتناول الشاي فى حديقة الفندق الذى أقيم فيه .. فوق الجبل .. وقبلت قورا .. ثم ترددت قليلا .. وقالت فى حياء :
— ورينهارت ..

واضطرت أن أدعو رينهارت أيضا .. وركبنا سيارتى، وصعدنا الجبل ورينهارت يتحدث طول الطريق عن السيارة، ويتحسس أجزائها .. ونظرته الباردة تضج بالسخط .. ثم يلتفت إلى ليدى ويسكب عليها هذه الابتسامة التى يحاول أن يسلب بها إرادتها.

وجلسنا فى حديقة الفندق نتناول الشاي .. وأنا أرقب الاثنين وأحاول أن اكتشف العلاقة التى تربطهما .. ورينهارت لا يزال يسكب ابتسامته على ليدى .. وليدى تنظر إلى عضلات ذراعيه، وعضلات صدره، كأنها تشفق بعينيه.

وانتهى الشاي ..

وكان يجب أن يعتذرا وينصرفا .. ولكن ليدى ظلت ساكنة .. وبدأت الشمس تغيب .. وفجأة قال رينهارت فى حدة :

— أظن يجب أن ننصرف.

وقالت ليدى كأنها فزعت :

— لا .. لا .. لنبقى قليلا !

وقال رينهارت وهو أكثر حدة :

— إذن .. سأنصرف أنا !

وقالت ليدى فى توسل :

— لا .. ابقى قليلا ..

ثم التفتت إلى وقالت بسرعة :
— إن هناك مرقصا في آخر البلدة، هل تريد أن تذهب إليه الليلة؟
ونظرت إلى الاثنين في دهشة، ثم قلت بلا مبالاة :
— لا مانع ..
ولم أكن أريد أن اذهب إلى المرقص، والواقع أنى لا أجيء المرقص،
ولا أحب .. ولكن كان هناك شيء يجذبني إلى هذين الاثنين ..
وتهلل وجه ليديا فرحا عندما وافقت على الذهاب إلى المرقص.
وانكمش وجه رينهارت ..
وقلت لليديا :
— يستحسن أن تذهبا الآن إلى فندقكما لتغيرا ثيابكما .. وسألق بكما
بعد أن أغير ثيابى !
وقال رينهارت :
— حسنا ..
وهبَّ واقفا ..
ولكن ليديا صاحت في فزع وإصرار :
— لا .. لا .. إن السيد يستطيع أن يصعد الآن ليبدل ثيابه، وسنتنظره
هنا .. وبعد ذلك نمر على فندقنا في طريقنا إلى المرقص.
ونظر إليها رينهارت في سخط ..
ووافقت أنا ، وصعدت إلى غرفتى والدهشة تملأ رأسى ..
إن ليسديا تصر على أن أبقى معها .. وهى تصر أيضا على أن يبقى
رينهارت معنا .. إنها تحتوى بى منه ولكن مم تحتوى .. ماذا يخيفها منه ..
ثم إذا كانت تخافه فلماذا لا تتخلص منه ، وقد أعطيتها أكثر من فرصة
للتخلص منه.
وعدت إليهما .. ولحيت ليديا تسحب يدها من يد رينهارت بمجرد أن
رأتنى، ثم ركبنا السيارة، وعلمت في الطريق أنهما يقيمان في فندق واحد ..
وأنهما التقيا بالأمس فقط .. وأن ليديا تعمل موظفة في بنك مدينة «فرارا»

إحدى مدن الريف الإيطالي، رغم أنها تحمل شهادة في التدريس.. وأن رينهارت عامل في أحد مصانع ميونخ بألمانيا، وقد جاء في أجازة إلى سيرميوني، راكبا موتسيكل.. وسيعود إلى ميونخ غدا.

وانتظرتهما أمام الفندق إلى أن غيرا ثيابهما.. وعندما نزلت ليديا من الفندق، اتجهت إلى تمثال السيدة العذراء معلق في حائط بيت وموقد تحته شمعتان، وركعت تحت أقدام التمثال نصف ركعة، ورسمت علامة الصليب على صدرها.. ثم ركبت السيارة.

وفي المرقص، لم أرقص ليديا.. تركت كل الرقصات لرينهارت.. وأخذت أرقبهما من بعيد.. وقد راقصته ليديا أول رقصة مبتعدة عنه.. وكان يحاول أن يقربها منه.. فكانت تقاوم.. وفي الرقصة الثانية اقتربت منه بعض الشيء.. ثم اقتربت أكثر في الرقصة الرابعة.. ثم أصبحت ترقص وهي ملتصقة به، ورأسها مائل على كتفه، وخدها على خده.

وبعد الرقصة الخامسة عادت ليديا إلى المائدة وهي تسير كأنها في حلم.. عيناها مكسرتان، وشفاتها منفرجتان.. وخطواتها ضعيفة.. وما كادت تلقى بنفسها على المقعد، حتى صاح رينهارت:

— هيا بنا إلى الفندق..

ومالت ليديا ناحيتي وقالت في فزع:

— لا.. لا.. لا يزال أمامنا كثير من الوقت..

وقال رينهارت وهو يسكب عليها نظرتة:

— يجب أن نعود..

والتفت ليديا إلى كأنها تستنجد بي.. ثم عادت تلتفت إلى رينهارت قائلة:

— أرجوك.. لنبق قليلا.. تعال أرقص هذه الرقصة أيضا..

وراقصها رينهارت مرة أخرى.. وعندما عاد بها كان يبدو أنها فقدت كل مقاومتها.. وحملت حقيبتها في صمت.. وقمت معها لأوصلهما إلى الفندق..

وطوال الطريق كنا صامتين نحن الثلاثة .. وكنت أستطيع أن ألمح
ذراعى رينهارت ملتفة حول كتف ليديا، وخطها نائم فوق عضلاته.
ووصلنا الفندق..
ونزلا من السيارة..
وشكرتني ليديا بكلمة خافتة ضعيفة، لم أسمعها، وصافحتني رينهارت
وشكرتني باللغة الألمانية.
وبقيت داخل السيارة أشعل سيجارة، وانظر خلفهما وهما متجهان إلى
باب الفندق.

و ..
لم تكد ليديا تصل إلى باب الفندق، حتى استدارت والتفتت إلى وصرخت :
— أنتظر ..
ثم جرت وحدها نحوى .. وقفزت داخل السيارة بجانبى، وهى تقول :
— إننى أريد أن أشرب فنجان قهوة ، خذنى إلى أى مكان أشرب فيه
قهوة..
قلت فى دهشة :
— ورينهارت ..
قالت كأنها تأمرنى :
— دعه .. أرجوك .. أسرع ..
وانطلقت بالسيارة، ورينهارت واقف ينظر إلينا فى غباء ، ويسكب علينا
نظراته الباردة !



وعدت بها إلى بهو الفندق الذى أقيم فيه .. وطلبت لها القهوة..
والساعات تمر، وهى لا تتحرك ، صامتة ، شاحبة ، أناملها تحتضن
الصليب المعلق فوق قلبها.
وبدأت أشعر بالتعب .. والملل .. وتثاءبت .. فلم تلحظ حاجتى إلى النوم..
وقلت لها بصراحة:

— إنى تعب ..

قالت فى رجاء :

— إنى أريد فنجانا آخر من القهوة !!

ثم ..

نظرت فى ساعتها المعلقة فى معصمها، وقالت كأنها تحدث نفسها :

— الساعة الخامسة.. إن رينهارت الآن فى طريقه إلى ميونخ..

ثم قفزت واقفة ، واستطردت :

— سأعود إلى الفندق .. شكرا !



وفى اليوم التالى خرجت من الفندق ونزلت إلى شوارع البلدة الضيقة،
والتقيت بليديا صاعدة، ولم تتوقف ؟ إنما أحنت لى رأسها من بعيد،
وابتسمت لى ابتسامة ملأت شفثيها وعينيها، وأوحت لى بيدها، وصعدت إلى
القمة.. قمة الجبل.



حلیہ لائین

إن كل لقاء بين أى فتى وفتاة، يبدأ
بالأمل.. الأمل فى لقاء آخر.. الأمل فى حب..
الأمل فى زواج.. الأمل فى أى شىء.. ماعدا أنا..
فكل لقاء بينى وبين أى فتاة يبدأ باليأس..
اليأس من كل شىء!



وأنا مهندس جيولوجى فى إحدى شركات
التعدين.. ومقر عملى فى شبه جزيرة سيناء.. هناك فى المناجم.. فوق قمة
الجبل.. بعيداً.. بعيداً عن الحياة.. وكنت أزور الحياة مرة كل شهرين،
فأنزل من فوق الجبل، وأسافر إلى القاهرة، وأقضى فيها يومين، ثم أعود إلى
الجبل.

وخلال هذين اليومين كنت ألتقى بفتيات.. كنت ألتقى بهن بين أفراد
عائلتى.. وفى النادي.. وكثيرات منهن أترن أعجائبي.. وبعضهن خفق لهن
قلبي.. وكنت أهم أحياناً بأن انساق فى الحديث مع واحدة منهن.. وأتقرب
إليها.. و.. أغازلها.. ولكن ما جدوى الحديث.. وما جدوى الغزل.. انى عائد
غداً إلى الجبل.. غداً لن أستطيع أن أتم حديثي معها.. لن أستطيع أن أتصل
بها بالتليفون كما يفعله بقية الشبان.. لن أستطيع أن أحدد معها موعداً
لللقاء.. سأبتعد عنها إلى حيث لا أراها، ولا ترانى.. سأغيب عنها شهرين،
ومن المستحيل أن أطلب من فتاة قابلتها لأول مرة، أن تنتظرنى شهرين إلى
أن أعود وأتم حديثي معها. مستحيل!

وكان هذا الاحساس باليأس.. يجعلنى أجلس بين البنات صامتاً
منطوياً، انظر اليهن نظرات مختلصة.. واتنهد.. تنهيدة اليأس!

ثم كنت أعود إلى الجبل، وفى رأسى صور للبنات اللاتى التقيت بهن فى
القاهرة.. أتصورهن وكل منهن لها شاب يلاحقها، ويغازلها، ويحدثها فى
التليفون.. وكل منهن تخرج إلى لقاء.. وأنا.. أنا لا نصيب لى فى كل هذا.. أنا

اليأس.. وكل نصيبى من الأمل هو ان أفوض والدتى فى ان تخطب لى احدى البنات.. واتزوجها بلا حديث، وبلا غزل، وبلا حب.. ثم احملها معى إلى الجبل، كما احمل حقيبة ثيابى.. وأنا لا أريد ان اتزوج مثل هذا الزواج.. لا.. أنا أريد فتاة أفهمها وتفهمنى، واحبها وتحبنى، قبل ان نتزوج.. ولا أمل لى فى التفاهم ولا فى الحب..

وكننت فى الجبل أحاول أن اعوض نفسى عن بنات القاهرة، ببسات خيالى.. كنت أقص صور الممثلات والنساء من المجلات الأجنبية، واغطى بها جدران حجرتى.. واستلقى فى فراشى وأخذ فى التحدث إلى صاحبات الصور.. كنت احداثهن بصوت عال مسموع.. انظر إلى صورة مارلين مونرو، وأقول لها:

— أنا زعلان منك يا مارلين .. كده تسيبيني لوحدى!

وانظر إلى صورة جينا لولو بريجيذا، وأصيح فيها بصوت غاضب:

— إيه ده يا جينا .. ايه الحاجات اللى بتعملها دى.. لازم تحترمى

نفسك!

ولكن ..

لم يكن هذا يكفى ..

كان يجب ان انفس عن الطاقة العاطفية الهائلة التى تعتلج فى قلبى..

كان يجب أن أحب ..

ان احب حباً يعطينى ويأخذ منى..

وأحببت ..

أحببت المنجم .. والجبل..

صدقنى لقد احببتهما.. حباً فيه كل عناصر الحب.. فيه الشوق..

والغيرة.. والفرح.. والغضب..

كنت أقوم من النوم ملهوقاً إلى رؤية المنجم.. واهرع إليه .. كأتى ذاهب

إلى لقاء حبيبتى.. واتطلع إليه، وأمس أحجاره.. كأتى اتطلع إلى حبيبتى

وأمس وجهها.. وكنت أغار عليه من العمال ومن زملائى المهندسين..

وأغضب وأثور إذا اخطأ واحد منهم في حقه.. ثم كنت اتلقى المعدن الذى يخرج منه كأتى اتلقى هدية حبيبتي..

وفنيت في حبي..

كنت أعرف كل شبر في المنجم.. وكل حجر فيه.. وكنت أعرف كل شبر في الجبل، وكل قطعة منه.. أعرف هضبانته ووديانته.. أعرف ما فوقه وما تحته.. وأعرف أهله وسكانه، وكل قدم تخطو عليه..

ثم كنت أعود في المساء.. واغتسل.. واحلق ذقنى.. وأرتدى أفخر ثيابى.. ثم اجلس لاتناول عشائى، وصور المنجم والجبل في خيالى، كأتى اتناول عشائى مع حبيبتي..

ومر عامان، منحتنى الشركة خلالهما أكثر من علاوة، وأكثر من ترقية، مكافأة على عمل.. على حبي.. وصدقنى انى لم أكن أفرح بالعلاوة والترقية قدر فرحتى بحبي.. قدر فرحتى بالهدية التى يمنحها لى المنجم كل صباح.. ثم..

ثم نزلت من الجبل، وسافرت إلى القاهرة.. وذهبت إلى النادى.. وقدمنى صديق إلى بثنية.. وجلسنا نتحدث، حديثاً هادئاً.. وأنا أنظر إليها هذه النظرات المختلطة المليئة بالياس.. انها جميلة.. هذا النوع من الجمال الهادئ الذى تحترمه أكثر مما تشتهييه.. وتنهدت.. تنهيدة اليأس.. ثم ما لبث صديقى ان انسحب وتركنا وحدنا.. ووجدت نفسى - بلا تعمد منى - احديثها عن المنجم وعن الجبل. كنت اتحدث بحماس وتدفق.. كأتى ابثها حبي.. ربما كنت فعلاً ابثها حبي..

ورفعت عينى إلى عينيها اثناء الحديث، فوجدت فيهما نوراً.. كأنها تشاركنى حماسى. كأنها تشاركنى حبي للمنجم والجبل.. كأنها تعيش حياتى!

وتوقفت عن حديث المنجم والجبل، وقلت لها بجرأة لا أدرى من أين واتتنى:

— اسمعى.. أنا مسافر غداً صباحاً إلى الجبل.. ويجب ان أقول لك كل

شيء الآن.. انى احس اننى مرتبط بك.. لا أدري، قد يكون حباً.. وقد يكون شيئاً آخر.. ولكنى متأكد من احساسى بأننى مرتبط بك.. قد يكون غريباً ان أحس بهذا الاحساس، ونحن لم نلتق إلا الآن.. ولكن هذا هو ما حدث.. فإذا كنت تشعرين نحوى بنفس الاحساس.. فاتى سأعود بعد شهرين.. فى يوم ٥ أكتوبر.. وسأحضر إلى هنا فى الساعة الخامسة وسأجلس على نفس المائدة.. أرجو ان أجدك!

ثم قمت فجأة، وصافحتها وانصرفت.. وهى لا تزال تنظر إلى ، وفى عينيها نور، وبين شفثيها ابتسامة..
وعدت إلى الجبل ..

وقضيت شهرين فى قلق .. كنت ادخل المنجم واسأل أحجاره عن بثينة.. واتطلع إلى قمم الجبل واسألها عن بثينة.. وادخل حجرتى وانظر إلى صور الممثلات المعلقة فوق الجدران واسأل كل واحدة منهن عن بثينة.. وكنت أحياناً اتصور أنها فى انتظارى.. وأحياناً اتصور أنها نسيته وسخرت من حديثى إليها.. ثم خيل إلى مرة انى اخونها مع صور الممثلات المعلقة فوق جدران غرفتى، فأمسكت بهذه الصور ومزقتها كلها..
و ..

وخيل إلى ان المنجم والجبل قد غضبا منى.. كأنهما يغاران من بثينة.. إن الهدية التى اتلقاها من المنجم كل يوم قد نقصت.. لعله غاضب فعلاً.. ولكن ماذا أفعل.. انه إحساس أقوى من إرادتى..
ومن الشهران..

وعدت إلى القاهرة ملهوفاً.. فى نفس التاريخ.. وفى نفس الموعد، ذهبت إلى النادي..
ووجدتها ..

وفى عينيها نور، وعلى شفثيها ابتسامة هادئة..
واتصلت بمركز الشركة فى القاهرة وحصلت على أجازة خمسة عشر يوماً..

ثم ..

عدت إلى الجبل ..

وعادت معى بثينة ..

إن زوجتى تدخل معى المنجم كل صباح، وهى ترتدى بنطلوناً وحذاء
كالذى يرتديه العمال.. وهى تحب المنجم.. إن الهدية التى يسخو بها علينا
كل يوم، قد زادت.. أصبحت هدية لاثنتين..





أَيُّنَ يَقِفُ اللَّهُ



أبى رجل صعب..
وأُمى مريضة..
وحبيبي رائع
وإنسا في الثامنة عشرة من عمرى.. أخاف
أبى، وأشفق على أُمى، وأحب حبيبي..
ولم أكن أخاف من أبى على نفسى.. ولكنى
كنت أخاف منه على أُمى.. لم أكن اهتز عندما يسببنى ويصرخ في وجهى
ولم أكن أتألم عندما يضربنى.. أحياناً بيده، وأحياناً بالشلوط، وأحياناً
بالشيشب.. إنى أعرفه.. أعرف عقليتيه الرجعية، ونزعة السيطرة التى
يفرضها علينا، وعناده، وإنانيتيه.. وقد ورثت عنه العناد، فعودت نفسى من
صغرى على الاستهانة به، والسخرية من عقليتيه.. ولكنه لم يكن يصب
غضبه وقسوته على وحدى.. كان عندما يغضب منى أو من أخى، أو من
خادمتنا عزيزة، يخص أُمى بالجانب الأكبر من ثورته.. يستدير إليها وهى
راقدة فى فراشها.. مشلولة.. وتنطلق الألفاظ القاسية من تحت شاربيه
كالرصاص.. ألفاظ تقتل.. وأرى وجهه أُمى يمتقع.. كأنها ستموت..
وشفتيها ترتعشان كأنهما تلفظ أنفاسها.. ورموشها تهتز فوق نظرة هلع..
فأخاف عليها.. أتألم لها.. ثم أراها تمد يدها الهزيلة وتلتقط يد أبى الواقف
أمامها منقوشاً كالديك الرومى.. وتقبلها.. وهى تقول فى صوتها الممزق :
— معلش يا حسنين.. المسامح كريم يا خويا.. حقتك على .. ما تعكرش
دمك !

وأكره أبى..

وأخاف منه..

أخاف منه على أُمى..

ومن أجل الخوف كنت أطيعه، وكنت أتملقه، وكنت أَرْضِخ لسيطرتيه..
ولم يكن يسمح لى بالخروج وحدى.. ويحتفظ بألة التليفون فى دولابه
الخاص ويغلق عليها بالمفتاح، ولا يخرجها إلا إذا أراد هو أن يتحدث..
ويحرم على أن ألبس حذاء بكعب عال، أو أضع الأصباغ على وجهى، أو

أذهب إلى الحلاق لأساوى شعري.. رغم أنى فى الثامنة عشرة من عمرى..
ومن خلف كل هذه القضبان التى زرعها أبى حولى .. أحببت.. أحببت
أحمد.. وكبر الحب فى قلبى حتى أصبح أقوى من القضبان.. وبدأت أتحايل
لأخرج للقاء أحمد !

وأبى رغم جبروته.. رجل ساذج !

كل الآباء سذج..

وكل الحيل التى ابتكرتها أفلحت.. وأصبحت أخرج للقاء أحمد .. كنت
ألقاه مرة كل شهر.. ثم أصبحت ألقاه مرة كل أسبوع. ثم مرتين فى
الأسبوع.. وأبى مطمئن سعيد!!

ولم يكن بينى وبين أحمد شىء أخجل منه.. لو كان أبى عاقلاً،
ولو كانت أمى سليمة.. لقلت لهما كل ما بينى وبين أحمد، بلا خوف، وبلا
حرج..

كل ما كان بينى وبينه حب.. حب كبير.. حب أظهر من أنفاس الملائكة..
ولم يكن لقاؤنا سوى أحلام.. نسير فى شارع الجبلية، يدي فى يده،
ونحلم.. نحلم بيننا..

وتعودنا أن نفترق عندما نصل الى ميدان سعد زغلول.. نفترق على
موعد جديد.. وأعبى كوبرى قصر النيل وحدى، وأسير حتى ميدان التحرير،
ومن هناك أركب الأوتوبيس إلى بيتى..
إلى أن كان يوم..

وكانت يدي فى يد أحمد ، ونحن سائران بجانب سور حديقة الأندلس..
وفجأة.. رأيت عمى أمامى.. يخلق بعينين دهشتين فى وجهى..
وفى برهة خاطفة ارتفعت فى مخيلتى صورة أبى القاسى، وأمى
المريضة.. وارتعشت.. ارتعشت من تحت ثيابى..

وصرخ عمى وهو يقف فى مواجهتى كأنه يمنعنى من الهرب:

— إيه ده يا بت.. مين اللى معاكى ده ؟!

إن عمى ألعن من أبى..

ودون أن أفكر، أجبت بسرعة :

— حضرتك مين؟

وصرخ:

— يا اقولك مين اللي معاكى ده ؟
 وصرخت صرخة أعلى من صرخته :
 — أنت مين أنت .. أنا ما عرفكش .. أنت مالك ومالى ..
 واتسعت عينا عمى كأنه جُنَّ .. وصرخ :
 — أنا مين يا مجرمة .. مش عارفة أنا مين ..
 وعدت أصرخ :
 — أيوه ما عرفكش .. إيه البلاوى دى .. إبعد عنى احسن لك ..
 وصرخ عمى :
 — يا بت فتحي عينك فى .. أنا عمك .. عمك يا بجحة يا قليلة الأدب ..
 والتفت إلى أحمد وأنا أهز كتفى ببرود ، وقلت :
 — ياللا بينا يا أحمد .. ده باين عليه راجل مجنون ..
 وأحمد واقف كالآبله ، لا يستطيع أن يتبين حقيقة الموقف ..
 وعاد عمى يصرخ ..
 وأنا أصرخ ..
 والتف الناس .. ناس كثيرون .. وعسكرى البوليس ..
 وصرخ عمى أمامهم :
 — دى بنت أخويا .. أنا عمها
 وصرخت أمامهم :
 — أنا ما عرفوش .. ما شفتوش قبل كده .. ده مجنون .. ابعده عنى ..
 ودفعه أحمد فى صدره ..
 وشده الناس من أمامى ..
 وصاح فيه واحد منهم :
 — خلاص يا أخينا .. اعقل بلاش فضايح ..
 وقال آخر :
 — يا راجل يا شايب .. اتلم ..
 وقال العسكرى :
 — أنت حاتفضسها ، ولا تمشى قدامى على القسم !
 لقد صدقنى الناس ..
 ونظر إلى عمى والنار تندلع من عينيه .. ثم تركنى وخرج من بين زحام

الناس مهرولا.. وكنت أعلم انه سيذهب إلى بيتنا ليبلغ أبى بالحادث..
فأسرعت أنا وأحمد.. وركبت سيارة أجرة.. كنت أعلم أن عمى سيركب
الأوتوبيس..

ووصلت إلى البيت قبله..

وغيرت ثيابى بسرعة، ثم جلست انتظر في غرفتي فترة، وأنا أضغط على
قلبي بيدي.. واستجمع اعصابى وإرادتى، لأبدو هادئة..
كان يجب أن استمر في تمثيل الرواية..

ودق جرس الباب.. وشددت نفساً عميقاً من صدرى.. وقمت لافتح
الباب بنفسى، وأنا أرتدى ثوب البيت.

وفتحت الباب..

إنه عمى..

وقلت وأنا أرسم ابتسامة فوق شفתי:

— أهلاً، أزيك يا عمى؟

وصرخ:

— عمك يا مجرمة..

ثم رفع يده وصفعنى.. صفعنى بقسوة.. وارتج جسدى كله
لصفعته.. وصرخت:

— إيه ده.. أنا عملت إيه يا عمى.. يا بابا.. يا بابا.. الحقنى يا بابا..

وبدأت أبكى..

وجاء أبى مهرولا، وهو يصيح:

— إيه.. فيه إيه.. حصل إيه..

وقال عمى وهو يرتعش:

— أنا لسه شايفها من ربيع ساعة ماشية مع راجل جنب جنينة

الأندلس!

وصرخت:

— أنا.. أنا يا عمى.. حرام عليك يا عمى.. حرام عليك تظلمنى!

وصرخ عمى:

— أيوه أنتى.. وكنتى لابسة فستان أزرق!

وقلت وأنا انشج بالبكاء:

— هو ما فيش حد عنده فستان أزرق إلا أنا.. حرام عليك يا عمى..
حرام..

وصرخ عمى :

— حرمت عليكى عيشتك.. ده أنا شايفك بعنيه دول.. يا بجحة..
يا وقحة..

وأبى واقف مشدوه.. إن الاتهام أكبر من أن يصدقه.. إنه لا يستطيع أن
يصدق بسهولة أن ابنته تسير مع رجل في شارع.. بعد كل هذه القيود..
وبعد كل هذه القسوة.. لا يمكن.. مستحيل !!

وقال أبى وهو حائر :

— أنت متأكد أنك شفتها يا خليل يا أخويا ؟

وقال عمى ووجهه مزدرد :

— طبعا متأكد.. زى ما أنا شايفها دلوقت..

وصرخت :

— ما تصدقوش يا بابا.. دى خديجة صاحبتى موصلانى لغاية باب
البيت هى وخدامتها..

وظهرت على وجه أبى أمارات الخطورة، كأنه أصبح شرلوك هولمز..
وأخرج آلة التليفون من دولابه، واتصل بصديقتى خديجة فأكدت له ما كنا
قد اتفقنا عليه قبل أن اخرج للقاء أحمد..

وعاد أبى وقد بدت الراحة على وجهه.. انه يفضل ألف مرة أن يكون
عمى كاذبا.. وقال وظل من ابتسامة الراحة يتراقص فوق شفثيه :

— ما يمكن تكون غلطان يا خليل يا خويا..

وقال عمى وصراخه يكاد يصل الى الجيران :

— أنا مش غلطان.. أنا شايفها بعنيه دول..

وقال أبى :

— لكن دى صاحبتها بتقول أنها وصلتها لغاية باب البيت..

وسكت عمى قليلا وهو يخور كالثور، وعيناه تنهشان وجهى.. ثم
انطلق فجأة صارخا :

— طيب خليهسا تحلف على المصحف.. أنا راضى انها تحلف على
المصحف..

وارتجفت ..
لا .. لا أستطيع أن أقسم بالقرآن .. لا أستطيع أن أغضب الله .. قد أغضب
أبى .. قد أغضب أمى .. ولكن، الله .. لا .. لا أستطيع
إنه قسم عظيم ..
قسم يقتلنى ..
ولكن أمى مريضة، وقد تموت .. وأبى مغرور وقد يحطمه الصديق .. و ..
ونظر إلى أبى فى ثقة، وقال كأنه ينهى المشكلة:
— احلفى على المصحف يا نادية ..
ولا زلت ارتجف ..
وأبى راقدة .. مشلولة .. ووجهها فى لون ملاءة السرير .. وشفتاها
ترتعثان كأنها تلفظ أنفاسها ..
وأبى واقف ينظر إلى فى اطمئنان .. كأنه وضع حياته بين يدي .. واطمان ..
وأنا لا أنطق ..
وجذب أبى المصحف الموضوع بجانب فراش أمى، ووضع بين يدي،
وهو يقول مبتسما :
— احلفى يا نادية ..
وتمتعت فى صدرى: «سامحنى يارب » . ورفعت المصحف إلى شفتى
وقبلته، ثم رفعته فوق عينى .. ونطقت بالقسم الكبير :
— والمصحف الشريف أنى لا شفت عمى، ولا عمى شافنى النهارده ..
ولا هويت ناحية جنينة الأندلس ..
وكاد المصحف يسقط من يدي .. أحسست بقلبي ينقبض .. وغمام أسود
يملا عينى .. أحسست كأن السماء تتجمع لتسقط فوق رأسى صاعقة ..
وسمعت أبى يتكلم، وكان صوته يأتى إلى من بعيد، قائلا:
— أهى حلفت يا سيدى .. استرحت !
وظل عمى ينظر إلى والنار فى عينيه، ثم خطف المصحف من يدي، قائلا:
— طيب هاتى ..
ووضع المصحف فوق عينيه، وأقسم القسم الكبير:
— والمصحف الشريف أنى شفت نادية بنت أخويا النهارده، ماشية مع
راجل جنب جنينة الأندلس ..

ثم ألقي المصحف على المائدة في عصبية.. وخرج من البيت وهو يصيح :
— خذ بالك من بنتك يا حسنين يا أخويا.. ما تخليهاش تفضحنا
وتسود وشنا

وسقط أبى جالساً فوق الأريكة، وسقط رأسه فوق صدره، وتعقد وجهه .. ثم رفع عينيه إلى برهة.. وعاد وأسقط رأسه فوق صدره ..
وأُمى يزداد وجهها امتقاعاً.. وتنظر إلى .. ثم تنظر إلى أبى.. ثم تنحدر
دموع كبيرة تعباً فوق خديها..

وجريت إلى غرفتى الملاصقة لغرفة والدى.. وألقيت نفسى فوق الفراش
وبكيت.. بكيت كثيراً .. كأنى اتوسل بدموعى إلى الله.. يارب ارحمنى.. يارب
لا تنتقم منى.. يا رب إنى لم ارتكب إثماً.. إنى أحب حبيبى.. وأحب أمى ..
وأحب أبى.. وأنت رب الحب.. وقد اقسمت بكتابك الكريم كذباً لأحمى
حبنى.. يا رب أنت أعلم بما فى قلبى.. لا تنتقم منى.. لا تعاقبنى.. إنى خائفة
يا رب.. خائفة منك.. خائفة على حبنى.. على أمى وأبى وحبيبى.. سامحنى..
ارحمنى.. ارحمنى يا رب..

و..

وسمعت جرس التليفون يدق فى غرفة أبى.. وسمعتة يصرخ فى هلع:
— ايه.. نقلتوه المستشفى.. طيب أنا جاي حالا..
ثم سمعتة يخاطب أمى قائلاً:
— أخويا انشل.. ونقلوه المستشفى..
ثم سكت قليلاً، وعاد يقول:
— يعنى كان لازم يحلف على المصحف.. ده المصحف كبير.. استغفر الله
العظيم يا رب..

— ثم دخل إلى غرفتى مهرولاً، وقال لى وهو يلهث:
— قومى يا بنتى البسى وتعالى معايا المستشفى نشوف عمك جبراله
إيه.. ولازم تسامحيه.. سامحيه من كل قلبك.. يمكن ربنا ياخذ بإيده..
وقلت له والدهشة تستبد بى، وقلبى متجه إلى الله:
— مسامحاه يا بابا ..



أين تذهب أمي؟



ان أمى جميلة.. صغيرة.. أجمل منى..
والفرق بين عمرى وعمرها لا يزيد عن سبعة
عشر عاماً.. انها فى الثالثة والثلاثين من
عمرها.. ورغم ذلك فلم أرَ أما أشد منها حرصاً
على التقاليد، ومظاهر الشرف.. ولم أرَ أما
أقسى منها على ابنتها.. انها تريد منى ان ابقى
دائماً بجانبها.. وتعتبر خروجى وحدى إلى
الشارع جريمة.. وتعتبر حديثى فى التليفون عاراً، حتى لو تأكدت من
انسى احادث إحدى صديقاتى.. وإذا تركت ثوبى يكشف عن أكثر من
رقبتى، فهذه فضيحة، لا يمكنها السكوت عليها..
وقد مات أبى منذ سنتين.. مات فى عز شبابه.. الله يرحمه.. ولم تخفف
أمى من تزمته، بعد وفاته.. بالعكس.. وازدادت تزمته، ازدادت قسوة على
وعلى نفسها.. انها إلى الآن لا تزال ترتدى السواد.. ولا تزال تزور قبر أبى
صباح كل يوم جمعة.. ولا تخرج من البيت إلا إلى القرافة أو فى زيارات
متباعدة لبيت جدى.. ولا يزورها من صديقاتها إلا عدد قليل. اثنتان أو
ثلاثة.. ويزرنها مرة أو مرتين فى العام كله.. وترفض كل عرض للزواج..
انها تعتبر من يحدثها عن الزواج كأنه يهينها.. وأنا اعلم انها كانت تحب
أبى.. كان حبها الأول والأخير.. حبها الوحيد.. ولكن مهما بلغ بها هذا
الحب، فحرام ان تدفن نفسها حية.. وإذا كانت قد قررت ان تدفن نفسها
حية، فحرام ان تدفنتى معها..
ورغم ذلك، فنحن لا نعيش فى وسط متزمت.. اننا نسكن المعادى، وأنا
طالبة فى مدرسة الليسيه.. وكل بنات الضاحية وكل سيداتها، ثم كل
زميلاتى فى المدرسة، يعشن حياة متحررة منطلقة، ويقبلن على الحياة، بكل
ما فى الحياة من حب، وضحك، ومتعة.. متع بريئة كثيرة، تحرمنى منها
أمى..
وكان الطريق الوحيد أمامى، حتى اعيش الحياة، هو ان أخدع أمى..

وقد خدعتها ..

وتماذيت في خداعها ..

إنها مطمئنة إلى انى اذهب إلى المدرسة كل صباح في سيارة المدرسة ..
وأعود في سيارة المدرسة .. ولكنها لا تعلم انى أزوغ بين الحصص مع
بعض زميلاتى، ونذهب إلى السينما في الحفلات الصباحية، أو نذهب إلى
محل البامبو في شارع سليمان باشا لنأكل الساندوتش والجاتو .. وكل منا
معها حبيبها .. أو، الواد بتاعها .. ثم نعود إلى المدرسة دون ان يشعر بنا
أحد، ونركب السيارة المدرسية لنعود بنا إلى بيوتنا ..

انها لا تدري — رغم حرصها وتشددتها في مراقبتى — إلى أى مدى
استطيع ان اذهب في خداعها .. انها لا تدري مثلاً، انى احادث حبيبى كل
يوم في التليفون .. احادثه وهى جالسة أمامى .. كل ما هنالك انى احادثه
باللغة الفرنسية .. وهى لا تعلم الفرنسية .. فقد تلقت تعليمها في المدارس
العربية، ولم تستمر في تعليمها إلى أكثر من الابتدائية .. وكانت تتلملعل وهى
ترانى اتحدث في التليفون، وأرى نظراتها تنطق بالشك .. والغیظ .. ولكن
لا يهم .. ما دامت لا تفهم شيئاً مما اقله .. وآه لو فهمت ..

وكنت أحياناً أحس كأنى اعذبها بحديثى في التليفون .. وكنت اتلذذ
بتعذيبى لها، كأنى انتقم منها لقسوتها على .. وكانت تصرخ في كأنها لم تعد
تحتمل مزيداً من العذاب :

— كفاية كلام بأه ..

فأرد في دلال كأنى اغيظها :

— حاضر يا ماما ..

وأحياناً كانت تصيح في وجهى :

— تسمحى تقوليل ما بتكلميش صاحبك بالعربى ليه ؟

فأرد، وأنا ادعى العبط :

— يا ماما كل صاحباتى بيتكلموا بالفرنساوى .. عاوزاهم يضحكوا

على ..

وفي مرة هجمت على لتتنزع سماعة التليفون من يدى، وتستمع إلى

الصوت الذى اتحدث إليه .. ولم اهتمز فقد كنت متفكسة مع حبيبى على ان يحتفظ باخته بجانبه كلما حدثته فى التليفون .. وكنت اسمى أخته: بوليس النجدة .. وعندما هممت أُمى أن تنتزع من يدي سماعة التليفون، قلت له بسرعة .. وبالفرنسية طبعاً:
— إدى السماعة لأختك ..

وسمعت أُمى صوت أخته .. وازداد غيظها وتركزت لى الغرفة ساخطة، وهى تهمهم:
— مرقعة بنات!

وأكثر من مرة هددتنى أُمى بأن ترفع التليفون من البيت .. ولكنى كنت واثقة انها لن تنفذ تهديدها، فأننا — أُمى وأنا وأخى الصغير — نعيش فى البيت وحدنا .. والتليفون بالنسبة لنا، بمثابة جرس الخطر .. ندقه فى بيت جدى، أو فى بيت خالى، كلما ألم بنا شىء ..
إلى أن كان يوم ..

وكنت فى المدرسة، واحتجت إلى ان أحادث أُمى فى التليفون لأبلغها ان عندنا حصة اضافية، وانى سأتأخر عن موعد عودتى .. وكانت الساعة الحادية عشرة صباحاً .. ورد على الخادم وأبلغنى ان أُمى قد خرجت .. ودهشت .. فإن أُمى لم تتعود ان تخرج .. ويسوم تخرج فأنها تحدد موعد خروجها قبله بأيام، وتعلنه لى ..

وقضيت اليوم الدراسى، وعدت إلى البيت، وانتظرت ان تبادتنى أُمى بخير خروجها .. ولكنها لم تفعل .. واضطرت ان اسألها:

— انتى خرجت النهاردة يا ماما؟
وخيل لى انها ارتبكت لسؤالى، وقالت فى تلعثم:
— عرفتى منين؟

قلت فى براءة:

— اصلى ضربت لك تليفون من المدرسة .. مالتكىش ..

وقالت والدماء تتصاعد إلى وجهها ، ولا تستطيع أن تواجهنى بنظراتها:

— آه .. ده أنا كنت لسه حاقولك .. أصل مرات خالك ضربت لى تليفون ..
وكانت عيانة شوية .. رحت ازورها ..
ولم اصدق أمى .. لا أدري لماذا .. ولكنى لم اصدقها .. قلبى حدثنى بأنها
تكذب على ..

وبعد يومين احتجت مرة ثانية ان اتحدث إلى أمى فى التليفون من
المدرسة .. انها ليست فى البيت .. خرجت .. وعدت فى المساء .. فلم تبلغنى خبر
خروجها .. وسكت أنا .. لم اقل لها انى حادثتها فى التليفون ..
ولم أنم ليلتها .. قضيت الليل اتقلب على جنبى .. واتساءل أين تذهب
أمى؟ وإذا كانت تذهب لزيارة أقاربها، فلماذا لا تصارحنى ..
أين تذهب .. هل لها عشيق تذهب إليه .. هذه الأم المتزمتة القاسية، هل
لها عشيق ..

واحسست بشيء يتمزق فى صدرى .. واحسست كأنى سأصرخ من
الألم!

وتعمدت فى اليوم التالى ان اتصل بها فى التليفون .. فى نفس الموعد .. ثم
أصبحت اتصل بها تليفونياً كل يوم .. وأحياناً أجدها .. وأحياناً تكون قد
خرجت .. وحسبت الأيام التى تخرج فيها .. انها أيام محددة .. السبت،
والاثنين، والأربعاء .. ودائماً فى نفس الموعد .. الساعة الحادية عشرة ..
وهى لا تقول لى أبداً أنها خرجت!

ولأدري أين تذهب ..

ولا أسألها عن ذلك ..

انها فى المساء تدخل حجرتها .. وتغلق على نفسها الباب، بالمفتاح .. وتبقى
فيها وحدها ساعات .. دون أن أدري ما تفعله لعلها تبكى .. لعلها تحلم ..
لعلها تكتب خطاباً غرامياً ..

ثم شيء آخر ..

انها لم تعد تجلس أمامى كلما تحدثت بالتليفون مع حبيبى .. ولم تعد
تغتاظ وهى تسمعنى اتحدث باللغة الفرنسية .. وأصبحت أنا التى أراقبها،
وأجلس أمامها كلما تحدثت فى التليفون .. واغتاظ .. انها تدعى انها تحدث

أمها، أو مرات خالي.. ولكن من يدري.. لعلها تخدعني كما اخدعها..
ورغم ذلك فهي لاتزال ترتدي السواد، ولا تزال تذهب إلى قبر أبي صباح
كل جمعة.. يا بجاحتها.. كم تجيد الادعاء.. وكم تحرص على المظاهر..
من يكون عشيقها؟

لا بد أنه رجل متزوج.. أو ربما سائق سيارة.. والا لتقدم للزواج منها..
ولا بد أنه سافل، منحط، يخدعها.. وأمى امرأة ساذجة، قطعت عمرها
منطوية، وليس لها تجارب لتعينها على السير في هذا الطريق.. القذر..
وتعذبت،

لا بد أن لها عشيقا

تعذبت كثيرا.. ليس هناك اقسى من عذاب الابنة عندما تعرف أن لأمها
عشيقا.. انه عذاب الغيرة.. والكرامة المجروحة.. والمثل الأعلى المحطم.. انى
أذهب إلى المدرسة فيخيل إلى أن كل زميلاتى يشرن إلى ويخرجن لى
السنتهن ويتهاوسن: هذه البنت لأمها عشيق..
وضعت.. وتلفت أعصابى.. ثم لم أعد أحتمل مزيدا من العذاب..

قررت أن أكتشف الحقيقة بنفسى..

وفي يوم الاثنين خرجت من البيت، واختبأت في الحديقة، إلى أن جاءت
سيارة المدرسة.. وضغط السائق على النفير مرتين، ولما لم يجدنى، اعتقد
أنى مريضة وأنى لن أذهب إلى المدرسة، فأنصرف..

وخرجت من الحديقة واختبأت في شارع جانبي، ووقفت أرقب بيتنا من
بعيد.. ومضت الدقائق ثقيلة مملّة.. وأنا لا اتعب، ولا أرجع عن رأيى.. إلى
أن كانت الساعة العاشرة والربع، ورأيت أمى تخرج من البيت.. وفي يدها
كيس من الورق تعودت أن تحمل فيه خيوط التريكو. فتبعتها دون أن
ترانى.. وأنا اختبئ خلف فروع الشجر، وفي ظلال البيوت.. إلى أن وصلت
إلى محطة المعادى، وركبت القطار.. وركبت نفس القطار، في عربة أخرى
وعيناي مركبتان على العربة التى ركبت فيها أمى..

ونزلت أمى في محطة باب اللوق.. وسارت.. وسرت وراءها، دون أن
تلمحنى.. ثم رأيتها تدخل في عمارة بشارع محمد فريد.. وأحسست بقلبي

ينخلع، ووقفت برهة كالمصعوقة.. أنها هذا تلتقى بعشيقها.. في شقة من هذه العمارة.. هذه الأم الأثمة..

وتماكنت نفسى بسرعة.. ودخلت العمارة وراءها.. وضعدت السلم.. صعدت وراءها، وعيناي مركزتان على قدميها، اللتين تصعدان أمامي.. ودخلت أمى في إحدى الشقق.. شقة بابها مفتوح..

وعلى الباب لوحة كبيرة مكتوب عليها : «مدرسة فاكس.. لتعليم جميع اللغات»..

ولم أفهم شيئاً..

ودخلت وراءها، وأنا أحس بنفسي كالعبيطة.. و.. ورأيتها..

جالسة على أحد مقاعد الدراسة..

ورأيتنى أمى.. وانطلقت الدهشة في وجهها.. وظلت تنظر إلى ساكنة.. وقلت لها وصوتى لا يكاد يخرج من زورى :

— بتعملى إيه هنا يا ماما ؟

وقالت هامسة، كأنها تتنهد :

— باتعلم فرنساوى علشان أفهم بتقولى إيه فى التليفون..

وارتميت على صدرها، وبكيت..

بكيت كثيراً..

بكيت كل عذابى..

وأخذتنى أمى بعيداً عن بقية زميلاتنا فى الدراسة وعادت بى إلى البيت..

ورويت لها قصتى كاملة، ووعدها ألا اتحدث مرة ثانية فى التليفون باللغة الفرنسية..

ولكن..

أتدرى ؟!

إن أمى مصممة على أن تتم تعلم اللغة الفرنسية !!

الترقيم الدولى
977 - 08 - 0788 - 3

رقم الإيداع
١٩٩٦ / ٨٢١٠

To: www.al-mostafa.com